نثر
من خيالات
الواقع

للحياةِ سكرات

نعمه العربي

للحَياةِ سَكَراتْ

نثر من خيالات الواقع

نعمة العربي

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
للحياة سكرات
المؤلف:
نعمة العربي
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-12 شارع أحمد عرابي -الدور 3-مكتب 8
هاتف: 23885295(012)(002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

نعمة العربي

للحَياةِ سَكَراتْ

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كلّ من أصبحتِ الكلماتُ غُصّةً في حلْقِه

و إليهْ، من دفعتْ بهِ كلماتُه إليّ، وهربتْ مني كلماتي إليهْ

لولا وجود أدباء من أمثال مصطفى صادق الرافعي ورضوى عاشور، لما تخلل سحر اللغة أعماقي.

البدايات

كي تبدأ القصة

أحيانًا يتملكني شعور مبهم بوجودك هنا في مكانٍ ما قريب، قريب من ظلّي حتى تلامست ظلالنا معًا، أو على مقربة إلى حدّ أنّ هالة أحدنا قد تلاشت في لحظة ما وأصبحنا في هالة واحدة، قد تكون هذه اللحظة هي الثانية التي خفق فيها قلبي فجأة ولم أعرف له سببًا، فشتّت أفكاري ولكنه ما لبث أن تركني لأكمل ما يشغلني. قد تكون أنت ذلك النبض الذي رفض أن يمكث كي لا يقطعني عمّا أحب، حتى يأتي زمنٌ ستقطعني أنت فيه عن كل شيء وتصبح أنت "من" أحب. ولكن متى؟

لا أعلم

قد يكون هذا أيضًا لحظةً تقابلنا فيها في يومٍ ما حين ذهبتُ لأحتسي شايًا على عجلة قبل موعد عملي، فلم ألحظ منك إلا عطرًا ظلّ عبقُه في أنفي طيلة يومٍ كامل ولم أعرف له صاحبًا. أو قد تكون مررتَ بجانبي في شارع ضيق وسمعتُ صوتك وأنت منشغل بالتحدث في هاتفك وغير عابئ بما قد تخبئُه لحظة كتلك التي لمحتني فيها.

أو قد يكون كل هذا محض خيال بداخل رأسي ليس له وجود، أو رغبة بائسة بالحديث إليك عن بُعد قبل أي لقاء لنا.

قد لا ألتقي بك أبدًا قبل اللقاء الأول صدفة في طريقٍ ما وقد لا نعبر

نفس الطرق أبدًا قبل ذلك، لتكون أنت من بلدٍ آخر أو يكون أحدنا بلا وطنٍ أصلًا. المهم أن يكون كل هذا، المهم أن يكون.

لا يهمّ إن قرأتَ هذا فيما بعد وتخيلتني وجهًا آخر أو فكرةً أخرى، لا يهم إن لم تزر الأماكن نفسها التي زرتُها أنا ولا المقاهي التي اعتدتُ أن أحتسي فيها مشروبي في هدوء، ولا حتى المكتبات التي مكثتُ فيها ساعات أبحث عن كتاب ما أو أقرأ في أماكنها المخصصة للقراءة بعد أن عجزتُ عن ترك فصلٍ ما في منتصفه. لا يهم.

المهم أن نذهب في يومٍ ما لهذه الأماكن معًا وأحكي لك كيف تخيلتك وأنت جالسٌ على مقعد قريبٍ مني تقرأ كتابًا ما لم أفهم حتى عنوانه، كيف وجدتُ لغز العنوان دليلًا إليك. وكيف رأيتك تشرب قهوة تركية شممتُ رائحتها من مكاني وتساءلتُ عمّن يشرب مثل هذه القهوة في هذا الوقت من اليوم، بل وربما سخرتُ من ذوقك، فأنا لا أحب مذاق القهوة.

المهم أن أُعيد كل ما حدث في مخيلتي لأضعه في مكانه الصحيح خارج دائرة الذي لم يحدث قط، داخل دائرة أخرى في الواقع. والمهم أن تستمع إليّ وإلى حماقاتي وسخافات أحلامي أحيانًا التي قد تبدو كطفلة تبكي حتى بعد أن حصلتْ على ما تحب.

المهم أن نأتي إلى حيث أردنا.

والمهم أن نلتقي.

كي نكون.

اكْتُبْ

اكتُبْ. اكتب لأن تملُّكَ الخوف مِنك لن يسمح لك بالكتابة أبدًا. اكتب لتنسى حدة إحساس الكلمات بداخلك وهي سجينة تصارع لتُفقدك صوابك. اكتب لأن من يقرأ لك يحتاج أن يعرف سلسلة أفكارك، التي تعبّر بها عمّا تريد أن تكتب، لأننا أحيانًا نحتاج إلى شخصٍ واحد فقط يشاركنا إحساسًا واحدًا، مهما كان السبيل إلى ذلك.

ليس المهم أن تكتب قطعة نثرية وليس المهم أن تكتبها بطريقة شِعرية مسجعة ولا حتى بقليل من الشعر. اكتب ولا تقل لي عمّ كتبت ولِمَ. دع الكلمات تنساب من قلمك على الأوراق ليصبح معدّل الكلمات في الدقيقة الواحدة معدلًا هستيريًا لا تستطيع الأفكار استيعابه. اكتب حتى يُقال إنك لست إلا قاتلًا للكلمات أو محررًا لها، ولكن دعك من المسميات؛ فمن السهل التلاعب بها. وإياك إياك أن تساوي بين من يكتب ومن يُطلَق عليه كاتبًا.

لا بأس إن لم تحرر روحك في الكتابة، ولا بأس أيضًا إذا تعسّر قلمك وتوقف قبل أن يصل إلى السطر الثاني أو الثالث، لا يهم. المهم ألا تهجره للأبد. اتركه قليلًا ثم عُد إليه عندما تستجمع قواك لتستكمل بعض سطور أخرى. لا تترك عملًا في منتصفه فقد تفقده للأبد.

اكتب لأن العالم يحتاجك أن تكتب. لأني أحتاجك أن تكتب، ليس عنّي ولا لي. أحتاجك أن تقول لي عن الكلمات التي تدور في رأسك وأحتاج إلى أن أعرف خيط أفكارك، من أين أتى وإلى أين يذهب وإلى أين قد تجعله يهرب منك دون أن تدري. اكتب لأني أحتاج إلى من يكتب معي، في نفس اللحظات التي أكتب فيها وفي نفس الأماكن وبنفس الحيثيّات. قد تنعتني بالأنانية وقد تغفل عن معرفة السبب الحقيقي لهذا كله. ولكنني أريدك أن تكتب أفكارك إذا لم يُقدّر لي أن أسمع الكلمات منك على الإطلاق. أريدك أن تكتب لأن كلماتك ستكون هي الأشعة التي تتخلل الحياة، مع شمس الشروق بعد ليلة معتمة، ولأنها ستنير روحي وروحك كأنها سحر من وحي الأفكار الذي يأتي على غفلة منّا.

اكتب.

اكتب لأنّي أحتاجك، أنت، بكل ما فيك، أحتاج وجودك بنفس هذه الظروف، ولكن بالكثير من الكلمات التي تعطيها لي لأكتبها، أو تكتبها أنت. أريد لكلماتنا أن يكمل بعضها بعضًا، ولصمتنا أن يتماشى مع سكوننا. وسيأتي اليوم الذي لن تضطر فيه إلى الكتابة، حتى أكتب أنا. وسأكتب لك. سأكتب لأجلك. سأكتب معك. ثم سأكتب عنك. سأكتب حتى يمكنك أن تتحرر من نفسك عبر كلماتي وتحررني معك.

اكتب حتى أكتبك.

كيف تُصبح الأحلام مُبصرة والواقع أعمى؟

– عز الدين شكري فشير

ليست أحلامًا

حدّثني عمّا لم تحلُمْ به، حدّثني عن كل ما لم تحلُم به، عن الألوان التي تقبع في واقعك ولم تصل إلى أحلامك. عن الأشياء التي لم تحدث قط، و الأشياء التي ظلت في المنتصف عالقة بين عالمين، واقعٍ لامتناهٍ وأحلامٍ عنيدة. قل لي إنك حلّقت في السماء من حولي لتصل إليّ برسالة فيها ما ينقذني مما أنا فيه، مما نحن فيه، ولكنك لم تفعل.

أو ربما يمكنك أن تحكيَ لي عن الأشياء التي لطالما أردتَ أن تسكن أحلامك ولكن خيالك لم يصل إليها، أو لم يكن بالقوة والشجاعة الكافيين لأخذها معه. وقد تكون أحلامك الهزيلة التافهة تملأ ساعات نومك ولم يعُد هناك متّسع للأحلام العريضة.

قل لي إن ما أنت عليه في الواقع ليس ما أنت عليه في أحلامك، علّ أحلامنا يومًا ما تتزامن في نفس اللحظة ونلتقي أخيرًا في المنام، نلتقي شخصين آخرين، لا أنت أنت ولا أنا أنا. وفي أحلامنا قد نجلس نحن الاثنان في مكانٍ ما بين أفكارك وفوضى الكلمات في أحلامي، مكانٍ قد نقع فيه في صمتٍ لا نهاية له ودون حاجة لأي نظرة أو كلمة أو لمسة من أيٍ منّا.

حدّثني عمّا لم تحلم به، عن كل تلك الأشياء التي تقع بين الواقع والخيال، بين الحلم والحقيقة، في زمانٍ ومكانٍ موازيين، قد لا تحدث أبدًا وقد تحدث الآن وفي هذه اللحظة، من يدري. حدّثني عن الأشياء التي طالما أردتَها بشدة ولكن لم ترها حتى في أحلامك، عن كلّ ما أردته ولم تقاتل من أجله عندما منعك جُبنك. حدّثني عن كل انكماشة في جسدك وكل لحظة هروب في داخلك، هروب من الحياة، انكماش من المجهول. رهبة من المجازفة. مجازفة في الصمت. مكوث عند حافة المستحيل.

حدّثني عن كل شيء.

لعلّ وعسى

لعلّك رأيت ولكن لم تنظُر، فالنظر رؤية إرادية وتعمق بينما الرؤية هي لكل من له عينان. لعلك سمعت ولكن لم تُنصت ولم تتخللِ الأحرف والكلمات أعماقك بحيث تعيش ما يرويه الآخرون ولا تتحول إلى مجرد إنسان يتكون من الإيماءات، حتى وإن كان إنصاتك يعني صمتك التام بعدها. لعل انفراج شفتيك لتُخرج كلمات هو ليس أفضل من صمت وإن كان غير مفهوم، فهو لن يؤذي قلبًا ضعيفاً عاش على محكّ الانكسار.

لعل يديك التي تعزف أنغامًا حزينة على عود ليس له صاحب، لعلها تدري كيف تعزف لحنًا صوفيًا أو دينيًا أو مجنونًا أو روحيًا ساحرًا بطريقة ما، لتبتلع الابتسامات الدموع وتتحول إلى فرح وأملٍ ورجاء. لعل قلبك الذي ينبض بجنون مع اقتراب من تحبّهم فقط يحنو على غريب بعيد في شوارع مدينتك الذابلة اليابسة من الحياة والتي دائمًا ما تبدو كأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، لعل تسارُع نبضات قلبك لأجله يروي شوارعها ويُحييها بسحرك الساحر.

لعلّ هدوء أنفاسك يحتاج لمن يثير جنونها ويبعث القلق والاضطراب وكل ما هو معاكس لسكينتها حتى تتمكن من العودة مرة أخرى بروحٍ

جديدة، كإحياء بلدتك الميتة. لعل سماءك زرقـاء هادئـة حتـى في أحلـك ظلمات أعماقك ولعل شمسك ربيعية حتى في أشدّ لياليك الخريفيـة. لعـل شتاءك دافئ في أحضان من تُحب ولعـلّ صـيفك ملـيء بزرقـة المحيطـات وخط الأفق الرفيع ما بين سماءك الهادئة وبحرك الساكن. لعل واقعك وُلِد في أحلامك في ليلة ما وقد نسيته بعد استيقاظة متعجّلة. لعـل صـديقك أخٌ لم تَلِدهُ الدنيا لك ولعلّ حبيبك نصفك الذي لم يكتمـل بعـد ولا بـد لـه أن يأتي في الموعد المحدد. لعلّ الحزن يفرّ مـن فرحـك مـن فـرط مـا سـعدتَ وفتحت لك الدنيا أبوابها.

لعلّهُم لا يعلمون من أنت، ولعلك لا تعلم من هُم، ولعلك لا تعلـم مـا يظنون بك، ولعلك لا تعلم من أنت، ولعلنـا جميعًـا لا نعلـم مـن نحـن، ولعل الطريق طويل والأنفاس قصيرة والصبر ينفـد والعـين تـدمع والأمـل يتبدد. ولعل هذا كلّه مجرد هاجس ولعلّ نفسك في مكان ما مرّت عينـاك عليها ولكن لم تنظرُ بقلبك وضللت الطريق بينما كنت في يومٍ ما هُناك.

لعلّ قلبك يحنّ لشيء ليس له وجود، وعينيك تدمع لإنـسان لا يعلـم أنك موجود، ولعلّ وجودك في نفسِك ليس موجود ولعلّ الوجـود كلّـه، في لحظة، يتلاشى من داخلك ويُستبدل بفراغٍ يقطـن لـيس إلا ليرشـدك إلى الوجود وخالقه من جديد.

لعلّ الحياة تبتلع سماءك وأرضك وليلك، ونهارك، وشمسك، وقمرك

في غمضة عينٍ حتى يُخيل لك أنك والعدم واحد، ولعلّ هذا كلـه يتلاشـى ليعود من جديد.

لعلّك، يومًا ما، تعودُ من جديد .

نحوي

غرور. غرور ونظرةٌ وتجاهلٌ وتكبّر، ثم رحيل. ترحل عني يومًا تلوَ الآخر لتجعلني ماضيًا لا يُهم وحاضرًا يإنّ.

تبدأ صباحك بي أنا المفعول به وأنت الفاعل الفرح المتبسّم ببرود شتاء يُفقدني الإحساس من كثرة الألم. فِعلك؟ لا أدري كُنهه ولا لحظته المحددة الدقيقة، فأنا المُشاهِد المتفرّج المكسور والمجرور. أراك تُحرّك روحي كما لو كانت الخيوط في يدِك وأنا الدمية الساكنة الهادئة العاجزة عن الحديث ولو بكلمة.

منذ زمنٍ كنتُ جملة تسير بحرّية وتركض بخفّة ورشاقة كما لو كانت في أينع شبابها، أما الآن فأنا مجرد كلماتٍ بين خطّين أفقيين يحولان بينها وبين كلماتك. أنا الجملة الاعتراضية التي لا يريدها أحدٌ ويتعسّر الجميع في ترجمتها وتحديد مكانها الصحيح في اللغة الأخرى.

ترفعُني ثم تتركني كالشريد المتسوّل المحتاج إلى مُداوٍ للجروح، ثُمّ تضمّني كالزهرة وتسعد بي وكأن ما حدث لم يكُن، وكأنني لم أُهمَل منذ دقيقتين. تذهب بي من حالٍ إلى حال وتحكي لي عنك بكلماتٍ كاذبة تهمزني وتسحرني بها، مع أن عقلي لم يذهب ومع أني على عِلم بترهاتك ولكنني أصمُت. أصمُت كلّي لعلّك تُدرك أن السكون ليس عجزًا

وإنما قوة لا تحتاج للحركة كباقي القوى.

تُطلقني في لحظة أخرى قد تكون توجّست منّي فيها فأتحوّل إلى مفعول مطلَق ولكن لفترة أعلم أنها ستنتهي بسلسلة أخرى من سلاسلِ تكبُّرك وعنادك، واستمتاعك بإحساس الفاعل المسيطر على عالم يحسبُه عالمه. ثمّ يمتدّ صمتي إليك وتنعتني بصفات ليست منّي ولا فيّ ولا أدري من أين دفعك غرورك للإتيان بها ولماذا. أهو سحر السكون وقوته أم هو جُبنك المتخفّي وراء غطرستك اللامتناهية؟

وتمرُّ السطور وأظلّ في أعماق أعماقك حتى ولو كنتُ إنسانًا مجنيًا عليه أو فاصلة تريد التخلّص منها لعجزك عن الإتيان بها في مكانها الصحيح، أو لو كنتُ ظرف زمانٍ تتمنى لو تسحقه ليصبح الوقت ملكَك والزمانُ زمانَك.

أظلّ هناك على أطراف السطور التي تملأ دفاترك وتدويناتك كما لو كنتُ عاقبة أفعالِك في، أو نتيجة أفكارك التي قد تكن لم تظهر لمن حولك، فأنا التي تظهر من أول السطر كالألف وأمتدّ كمدّها إلى آخر الصفحة. وأنا النقطة التي تكتبها ملتصقة بآخر كلمة تعبُر أفكارك وتنطلق إلى دفاترك.

فقد تأتي أنت نحوي ولكنني أنا التشكيل وعلامة الترقيم في جسدك وكلماتك. نقطة.

صمتان متقاطعان

لِلمني في كلماتك عندما يعجز لساني عن النطق، ثم لِلمني في صمتك عندما أتحدث بكلماتٍ لا معنى لها. أفرِغ صبرك عليّ عندما لا أدري ما أريد وعند طمعي في الحصول على الدنيا وما فيها.

حدّثني بكلمات فيها من الجنون ما فيها من الحكمة والسكينة والطمأنينة حتى أُدرِك أنني لستُ المعنيّ الوحيد بالجنون. حدّثني عن قصص لا معنى لها ثم عن قصص فيها من المغزى ما تدمع له عيناي، ثُم اتركني أبكي على ما لم أعلمهُ من هذه الدنيا، أو ضمّني إليك عند احتياجي لهذا الاحتواء المتكامل كي أعود إلى أرض الواقع بعد ابتلاعي لآخر دمعة على شفتيّ.

مُدّ إليّ يدك كي تسحبني من خيالاتي التي تبتلعني أحيانًا إلى حد أنّي يغلبني التيه فلا أعلم من في واقعي ومن لم يخرج من خيالي، أو اتركني قليلًا قبل أن تسحبني كي أستمتع ببعضٍ من الضياع لكي أعود من جديد. حدّثني عنك بينما تُحدّق في أعماق أعماقي كي أعلم عنك بكلماتك وتعلم عنّي بصمتي، فينشأ بيننا نصف حديث وحديثٌ كامل في نفس اللحظة. افصح لي عن أسرارك ما لم تُفصح به لأحدٍ ثم عاملني كالغريب الذي يخاف أن ينطق فتنكشف روحه في كلمة.

حدّثني بلا انقطاع حتى أنسى ماهيتي وأنسى ما أريده من العالم من حولي، وأنسى ذلك الكمّ من الحزن الذي يتوغّلني كل ليلة تحت أغطيتي الشتوية التي تبتلع كياني فتأخذ كل ما يعبّر عن سعادتي، ثم تعطيني الحزن الذي لا يظهر إلا مع اختفاء ضوء القمر من غرفتي وحلول الهدوء الباعث للجنون في شوارعي المحيطة.

حتى يبدأ صخب أفكاري وجنون تخيلاتي التي لا أستطيع أن أرسم حدودها، فتبدأ هي في رسم حدودها على جسدي ثم ذاكرتي ثم كآبتي. وتعطيني من الألوان ما هو أزرق ليليّ وأبيض قمريّ وأسود حالك، وتتركني بذكريات لا لون ولا عُمق لها، ثم بكلمات بلا معنى كهذي. ثم تتركني أغرق في صمت قاتل.

لا تترُكْني.

حدثني عن المزيد منك، عن ما تُحب وتكره، عن ما يستدعي صمتك وما يستدعي إنقاذك لي من صمتي. حدثني عن من أنت علّني أعرف شيئًا عن نفسي. احكِ لي عن ذكرياتك الملوّنة علّها تبعث الإحساس والألوان لذكرياتي فيصبح في ليلي ألوان أخرى لا تقتلني كلما تلحّفت في غطائي. حدّثني عن الأحلام، أحلام الليل لا أحلام اليقظة التي كثيرًا ما تكون مليئة بالحُزن. حدّثني عن البدايات والنهايات والمتناقضات والمتشابهات والدفء والرعشة، عن رعشة الحبيب وعن دفء الغريب. احكِ لي عن

حزن القريب وفرحة الغريب. حدثني عن كـل شـيء. عنـك وعنّـي وعـن الدنيا وعن ما ليس في الدنيا، عـن الأمـوات والأحيـاء والوجـود والعـدم. حدثني عن.. عن ماذا؟ عنّا.

لعلّني في يومٍ ما أكتشف من أنا، أو كما يقول درويش. علّني في يومٍ ما أصيرُ ما أريدْ.

لِمَ لا؟

تأخـذني، تأخـذني إلى حيـث لا أعلـم، إلى حيـث لا أريـد أن أعلـم. تأخذني إلى عالم ليس أقل كآبة من هذا العالم الذي أعيش فيه، مـن هـذا الواقع الذي يطاردني حتى في الأحـلام فـلا تـصبح كـوابيسَ تـوقظني ولا تصبح أحلامًا تُمتّعني، وإنما تصبح واقعًا مؤلمًا في لذة نـومٍ كاذبـة واهيـة. تمسك بيدي وتسحبني إلى طريق ناءٍ خالٍ من البشر ومُعبأ بأفكار لأنـاس عاشوا وماتوا هنا ولم يشعر بهم أحد. تأخذني على أمل أن أستجمع قواي وأنتشل هذه الأفكار من هذا المكان قبل أن تموت هنا وحدها مع صاحبها الذي أصبح عظامًا تحت التراب. تربّت على كتفي كمن هو على استعداد لدخول معركة لا يعلم من له النصر فيهـا. ثـم تتركـني، تتركـني هنـا، وحدي تتخبطني هذه العواصف الفكرية الـتي تـأبى أن تـهـدأ لتـستقرّ في داخلي، وكأنها تشعر أنني لصٌّ ليس إلا .

ثم لاأدري ما الذي جـاء بـي إلى هنـا ولِـمَ لم أهـرب إلى مكـان هـادئ يبعث السكينة والطمأنينة في داخلي بدلًا من أن أصارع أفكار العالم، وهل لي من الطاقة مـا يعيـنني علـى اسـتيعاب أفكـار الآخـرين مكومـة فـوق أفكاري؟ هل لي من مُعين؟ لست أدري.

ثم أبدأ في العدو، أركض وأركض بـلا توقّـف حتـى أطـرد أفكـاري أو أعيرها إلى وطنٍ يصحو ويغفو على أفكار حالكة مؤلمة، أفكار يقتلني بهـا مع الصباح الباكر حتى ظلام الليل. ولِمَ لا؟ لم لا أعيرها إلى وطني؟ لِـم لا أعيره بعضًا من آلامي التي تنبع من أفكاره الحالكة التي أُقتـل بهـا علـى مدى عمري حتى يقتلني القتلة الأخيرة، وأموت إلى راحة أبدية.

لِمَ لا يا وطني؟ فلتأخذ بعضًا من آلامي كما تقتلني بالكثير من لياليك الحالكة التي أُحبس فيها وأموت موتًا بطيئًا.

أو اقتلني الآن مرة واحدة مؤلمة فهي أفضل من ميتـات عديـدة بطيئـة عديمة الألم.

لِمَ لا يا وطن؟

اغتراب

الشوقُ غربة ، والخوفُ غُربة ، والصمتُ غُربة، والوِحدةُ غُربة ،
والموتُ والألم والخِداعُ واللارغبة. كُلّهم غُربة
والطُمأنينة وطنٌ ليس له وجود.

عَدوان

لا أعلم من أين أتيت، وإلى أين سأذهب. أريد أن أهرب من كـل شـيء لا أعرفه ويعرفني، أريد أن أهرب من كـل الكلمـات الـتي قيلـت وتُقـال وسوف تُقال، أريد أن أُزيح همومها من على أكتافي، وأتحرر من قيـود لا تنتهي. أريد أن أعدو.

أعدو حتى أنسى كل شـيء حـولي. أعـدو حتـى ينسانى كـل شـيء، ينساني الجميع، ويهرب مني كل شيء. أعدو حتى تنقطع أنفاسي وأفقد القدرة على الحديث حتى أهدأ. ولكنني لا أنتظر أن أهدأ.

أعدو لأتناسى، لأفرّ مما بداخلى، لأفرّ من أفكاري. أعدو لكى لا يظنّ العالم أنّى أتكاسل يومًا عن النسيان، وأقبع في ذكريات الماضي. أعدو لكـى لا يظنّ العالم شيئًا ما، تبًا لهذا العالم الذي يظنّ أنه يعرف كل شيء.

أريد أن أعدو حتى يعجز الأكسجين عن الوصـول إلى أفكـاري، حتـى أتوقف عن التفكير في كل شيء، حتى لا أكون. أعدو حتى أصبح شتاتًا من الذكريات في الهواء اللامتناهى، حتى أكون في كل مكـان وفي كـل زمـان، حتى أتحرر من أي قيد. أعدو حتـى أصبح أنـا المكـان والزمـان، لأخلـق مفهومًا جديدًا لن يستوعبه العقلاء. فما قيمة العقل؟ الجنون.

أعدو إلى أن أسبح في فضاء الكـون، إلى أن تتلاشـى المسافات وتنتهـي الطرق على كوكبي. فأعدو في الفضاء السحيق، وأظل أعدو إلى اللانـهاية.

ثم أفنى من الوجود بدون قيود أخرى، فقط بقيد العودة بنفس الـروح إلى عالم آخر. عالم لن أعرف عنه شيئًا إلا عند فنائي. فأتلاشى في صمت. وبنشوة لم أعهدها من قبل. وبقلب صـافٍ مـن كـل مـا هـو قبـيح في هـذا العالم.

أتلاشى، حتى يتلاشى العالم معي.

ولا أعدو بعدها ما حييت، أو ما متّ.

فأعلم حينئذٍ من أين أتيت.

هستيريا صمت

تملكتني رغبة عارمة لامتناهية بالصمت، وانهالت عليّ كما لو كانت جبلاً من الجليد فوق رأسي أو بداخلي، وتركت كل كلمة تعلمتها تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت هذه الرغبة، ثم تلقى مصرعها في غضون ثوانٍ معدودة.

سُئلت عمّن أكون فسكتّ، تارة لأنني لم أعرف حقًا وتارة أخرى لأنني لم أجد الكلمات في رأسي. ثم سُئلت من أين أتيتُ وإلى أين أشقُّ طريقي، فلم أعرف ماذا أجيب، وكأن أحدًا ما خاط شفتاي ليمنعني عن الكلام. ولكنني بالفعل لم أرِد أن أتكلم. سألوني عن اسمي وعن وطني وعن عائلتي ومأواي. لم أنطق. لم أتحدث. جُنّ جنونهم لهذا، ولكنني التزمت بهدوئي أمامهم. التزمت بصمتي كما لو كنتُ قطعتُ وعدًا لا يمكن أن يُخلف.

هذه المرة ظنّوا أنني أنا المجنون. أخذوا يتغامزون ويتحدثون عنّي على مرأى مني وأحيانًا أمامي مباشرةً، يحسبون أنني أصبحت لا أسمع، أو أنني لن أنطق مجددًا أبدًا.

(ربما كانوا على حق)

أصغيتُ لهم ولكل كلمة قيلت عنّي. سمعتهم يستهزؤون بي وبكلماتي في الماضي، والتي أصبحت الآن في عداد النسيان. رأيت كلّ شيء وسمعت كل شيء ولم تضعف شفتاي للنطق بكلمة واحدة وردّ استهزائهم باستهزاء آخر. ثم بدأت أستمع لهم وأستمتع بما يقولونه، وبدا صمتي أمامهم بالتحديد هو استهزائي بهم وبغفلتهم. نسوا أنني فقدت قدرة ما على الحديث وليس على الإنصات. ونسوا أنني لم أفقدها بالتحديد بل كانت رغبة قوية مني، بعد أن انتابتني هستيريا من الكلمات في لحظة ما من يومٍ مشؤوم. نسوا كل شيء. ولكنني لم أنسَ.

سمعت منهم كل ما يخطر ببال ولم أتحدث، سمعت منهم القيل والقال بينما بدأت خيوط أفكاري تتمزق كما تمزقت معها الخيوط بين شفتيّ أيضًا. شعرتُ أن كلماتهم تتخلل الفراغات بين شفتيّ لتُحدثَ ثقوبًا داخلي دون أن أنبس ببنت شفة، ودون أن أتفاعل بأي شكلٍ من الأشكال أو كلمة من الكلمات.

تحدثوا حتى أرهقتني كلماتهم، وكأنني كنت أنا المتحدث طيلة هذا الوقت. تحدثوا وكأن حديثي سابقًا كان يردعهم عن النطق بأي كلمات غير كلماتي، مستعيرين بهذا بكل لفظة ألفظها في كلماتهم، ومتجاهلين وجود صمتٍ قد يسحق كل هذه الكلمات في لحظة إن أراد.

وانتابتني هستيريا. نوعٌ آخر من الهستيريا هذه المرة. لم أُرِد أن

أتحدث مطلقاً. صمتُّ حتى كاد الصمت يشكو من صمتي وتوسل إليّ كي أذيب ذلك الجبل الجليدي فوق كلماتي. صمتُّ حتى لم أعُد أعلم لمَ كنت أتحدث من قبل، ولِم اعتدتُ أن أقْحِم كلماتٍ عديدة في حديثي لم يكن لها أي معنى، إلا أنها كانت مجرد ملء لفراغات بين الدقيقة والأخرى. صمتُّ حتى لم أعُد أريد أن أتعلم كلمة أخرى، وكأنني اكتفيت بمعجم الكلمات في ذاكرتي ولا أريد أن يشوبه أي لفظ قبيح من ألفاظهم وألفاظٍ جديدة لن تروق لي.

صمتُّ حتى أدركتُ الفرق بين حديث الظالم وصمت المظلوم.

ثمّ قررت أن أصمت للأبد.

وضعوني في إناء

ثم قالوا لي تأقلمْ

وأنا لست بماء

أنا من طين السماء

وإذا ضاق إنائي بنموّي ...يتحطم

– أحمد مطر

فقاعة النفس

لطالما تمنيت أن تكون هالتي مرئية، كنت دائمًا ما أشعر أنها مفترق الطريق بين أفكاري وأفكار الآخرين التي أريد أن أنفصل عنها، فأستعين بهذه الهالة لأعود إلى نفسي، ولأتقوقع داخلي وأنكمش بجلدي إلى الداخل بطريقة ما.

ثم قررت في لحظة ما أن أسمّيها فقاعة النفس، تلك التي يقفز كلٌ منّا بداخلها وقت حاجته، أو عندما ينهال عليه سيل من الواقع فينزلق بكل ما بداخله فيها، ليحتمي؟ ربما وربما لا - ربما هو مجرد بيت زجاجي مؤقت لن يدوم طويلاً.

هذه الفقاعة التي احتملت كمًا مرعبًا لا يُعد من أفكاري حتى تمنيت ورفعتُ يدي للسماء في لحظة ما آملة أن أتخلص منها. تمنيت أن تكون لأفكاري أجساد تكبر وتصغر حسب قوة الفكرة ومدة عنادها داخل رأسي، حتى تنفجر هذه الفقاعة وتتحول إلى جزيئات من الأفكار التي ستتحلل أو تتبخر في الهواء فيما بعد، ويتخلص منها العالم أجمع.

ثم خفت أن تصمد فكرة ما وتغوص في عقل شخص آخر، فينقضي بي الحال إلى خوف آخر لا ينتهي. فتمنيت أن أخرج خارج جلدي وخارج

نفسي وأترك هذه الفقاعة، أهرب من داخل داخلي، لأرحل إلى أخرى لعلّي أجد فيها أفكارًا أكثر هدوءًا وأكثر استرخاءً. لعل بها شخصًا يعرف ما أجهله.

تمنيت أن أخرج خارج نفسي وأتقمص دورًا لا هوَ لي ولا مني، لأنظر إليّ من مسافة بعيدة وأراني كيف أكون، وماذا أكون. تمنيت أن أجد إجابات للعديد من الأسئلة التي تقتلني ولا تتركني:

مثلًا كيف يحتلّني صمتٌ مخيف في أشد الأوقات حاجة للكلام، وكيف تعذبني كلمات دائمًا ما تخرج على غير موعد. كيف تحدثُني ولا أتمكن أن أعطيك كلمة أو أرفع شفة من على الأخرى لأنطق بكلمة واحدة، فقط أبتسم ويغرقني صمتٌ غير مفهوم. تمنيت أن أعرف كيف تراني وكيف يراني من يظنّ أنني من شدة الإخلاص أكاد أغيّر العالم، وكيف لا يدركون أن العكس هو الصحيح، وأنني محيط يصب فيه العالم تغييرًا يوميًا دون أن يراه أحد. تمنيّت أيضًا أن أكون أنت وأترك لك كلمات قد لا أتفوّه بها وأنا بداخل فقاعتي ونفسي، ثم أهرب إلى حيث أشاء وقد ارتاحت شفتاي اللتان تحملتا الكثير من الكلمات وراءهما.

تمنيّت أن أخرج من داخلي وأن أحطّم أسواري وأصارع مخاوفي وأحرر كلماتي.

تمنيّتُ ألا تكون لي فقاعةٌ، تمنيّت ألا أكون.

اغتراب جسد

تنفيني نفسي من الداخل، فأسافر منها لأعود كما لو كان لي وطن أحنّ إليه فأعود شخصًا آخر.

ثم تنفيني مرة أخرى وأعود فتعيد الكرّة مرارًا وتكرارًا حتى يُخيّل إليّ أنني لن أصبح من تريده ولن نتفق مدى الحياة، وربما نتفق لحظة الموت الأخيرة فقط، فتكون كافية لحل هذا الصراع بهدوءٍ أخير قبل سكون أبديّ. وقد نلتقي في مفترق الطرق فيفضّل كل منا استكمال مسيرته وحده، فإن الوحدة تشفي أحيانًا، أو يُخيّل لنا هذا.

ويقول كلٌّ منا لنفسه ألّا تحزن فإن الله معها. وأحيانًا قد نسلك نفس الدرب ونمشي الهوينى أو يزيد واحد منا من سرعة خطواته حتى لا يلحقه الآخر وحتى لا نلتقي أبدًا. ثم إذا تساوت سرعاتنا لا يدور بيننا حديث واحد ويطبق كلانا بالصمت، كما الغريب بين أربعة جدران، بينما يسود الغربة والرهبة والتحفز هواء الغرفة.

المهم أننا لا نلتقي، والأهم أننا لا نتفق. والمهم أيضًا أن يعيش كلانا بحثًا عن الآخر بينما هو يسير بجانبه، ولكن التظاهر أعمى، والتضليل أعمى، والكذب أعمى، والخداع أعمى، وفقر النفس أعمى.

ولكن العمر كله أعمى.

أُحجية

أصبحتُ كقِطعة من الأحجية تُحرّكها يدٌ وتُعيدها أخرى، أتردد بين إصبعين لا أدري أين سأوضع ولا أعلم مآلي، وكأن وجودي لا يُكمل في شيئًا ولكنه يضيف للقصة فصلًا أو بابًا بدونه ينقص القصة حبكةٌ ما، أو ينقص الصورة لونٌ ما.

أهوي من قمة إلى قاع ثم أسقط على قطعة أخرى، أحاول الثبات في مكان واحد لدقيقتين، ولكن مسار القصة يجب أن يكتمل عند نقطة ما، عندما يصبح غيابي عاملًا مؤثرًا بعدما يكون الأمل بداخلي قد بدأ يتبدد وتشحب الألوان على جسدي، لأصبح قطعة مهترئة رمادية كالعجوز الذي يلتقط أنفاسه الأخيرة ويحاول التشبث بالحياة قبل أن تبرق عيناه مرة أخيرة لحظة الزوال.

أمكث قليلًا بين يدي صاحبي ثم أنظر من مكاني فأدرك أنه لم يعد إلا أنا، وأرى أن الجميع اتّخذ مكانه فتحوّلت الصورة من أشلاء إلى تحفة فنية ما، وأصبح مكاني فيها هو ما سيُعطيها رونقها. ولكنني أشعر أنني بمجرد أن أُكملها سأفقد نفسي من الداخل، وكأن كمالها نقصاني وجمالها قبحي.

وكأنّ دوري سينتهى عند هذا التشابك مع بقية القطع من حولى.

وكأنني لاشيء.

وكأنّ الرحلة انتهت هاهنا.

فانتهيتُ معها.

استحقاق

إن لم أكن أنت، لا تتركني إليّ.

أعطني نفحة من روح فقير، أو روح مريض، أو روح ذليل، لكن لا تتركني لكبريائي. لا تتركني لغطرسة تصرفاتي التي لا أفهم كنهها ولا معناها وأبيت في تساؤلات تظل معي لياليَ لا تنتهي، دون أن أحصل على إجابات دافئة؛ جميع إجاباتي باردة أو خالية من التعسف والتأنيب.

جلّ ما آخذه هو تربيتٌ على الكتفين أو على الظهر من نفسٍ تعجز عن نفض غبار النرجسية عن كتفيها، بل تربت عليه ليمكث أكبر وقتٍ ممكن. ثم أنظر إلى من هم حولي فأرى كلماتهم التي قيلت عني من قبل ثم لم تفلح الأنا داخلي في نسيانها، وعجز قلبي عن الانصياع لها قبل أن يتوانى ويكسره الفتور، ثم يتركه في أحشائي متريّثاً مترقبًا لحظة قد لا تأتي ما حييت.

ويعجزني تساؤل أستمر في ترديده في أفكاري في ليلة ما.. أيقتلني الغرور؟ أيقتلني في منامي مثلًا بعد أن أكون قد استنزفت أفكارًا أحاول بها العودة إلى المسار القديم الذي ملأتْهُ الحياةُ بالملمات بعد انحرافٍ مني إليّ بالشكل الذي آل بي إلى الوصول إلى ما أنا فيه؟

أيقتلني في تلك اللحظة الأخيرة التي أحاول فيها العدول عن نسيان أو تناسٍ أو تجاهل أفكارٍ يخسفها التكبر فأصبح، أو يُخيّل إليّ في آخر نفحة هواء أستنشقها، أنني نجوت بفكرة أو بلحظة؟

أأموت شهيدة فكرة لا أستحقها؟

يقظة أحلام

أن تقابل من يذكّرك بمكانك المفضل، من يشبه عطره رائحة البحر في ليلة ربيع مُعبأة بالنجوم في طياتها وسماواتها. أن تجلس مع من يتحدث بعبارات ترسُم في أفكارك رواية من روايات كاتبك المفضل، وهو يتحدث دون علمٍ بهذا التنويم المغناطيسي الذي يهبط عليك فجأة، فتصبح كأن الكلمات كانت لك كالخمر التي أفرطت في احتسائها ثم ضللت الطريق إلى نفسك.

أن تنظر إلى من يُذكّرك وجهه بجمال القهوة التركية التي تبعث رائحتها بإحساس أنك في عالم لا هو هنا ولا هو هناك. أن تتأمل صمت شخصٍ تُحبّ وإذا بصمته يتحوّل إلى كمانٍ في يدِ طفلٍ في العاشرة من عمره، فتتحول كل إيماءة صامتة أو نظرة ساكنة إلى نغمة تُعزفُ بإصبعٍ من أصابع هذا الطفل الذي لا تعلم حتى من أين أتى وإلى أين سيمضي.

أن تتأمل تلطُخ وجه طفل فقير فيتحوّل هذا اللون القاتم على بشرته إلى فرحٍ لا تسعُه أرض يقتلها شقاء شعوبها. أن تسمع كلمات طفلٍ عن عالمه فإذا بك ترسم لوحة بها من الألوان ما لا تتحمله نظرة البائس الشقي.

أن تتحوّلَ نظرة محبوبك إلى قصائد لن يستطيع العالم أجمع تنظيمها وإلقاءها. فتتحولُ أنت كالمسحور الذي لا يدري أهذا جنونٌ أم عقلانيـة، أم كما قال كاتبك المفضل "هو عقلنةُ الجنون". أن تستيقظ في صباحك بواقعٍ تحسبه من خيالات أحلام اليقظة وإذا به كان حلمًا تحقق في واقعك.

أن تـهبط هذه الأحاسيس جميعها في يومٍ كنت فيـه في أمـسّ الحاجـة إلى بعضٍ من الحياة النقية الصافية، فإذا بـها من فرط حدّتـها تقتلك قتلـة سرمدية تصبح فيها الميّت الحي.

ولكنك تشعر، رغم كل هذا، بأنـها أفضل من موتٍ في حياة بلا أحياء.

استنزاف

أدور في حلقاتٍ مُفرغة، أتمتِمُ بكلمات قيلت من قبل ولم تجد لنفسها مساحة كافية بمحاذاة أفكاري المتزاحمة في الداخل. أُرددُ جُملًا وعِبارات أعجز أنا أيضًا عن فهمها. أستمع لمن حولي يرددون هم كذلك عبارات غير مفهومة. أستلقي بعرض الطريق لأشاهد نجوم السماء التي لازلتُ أحاول العثور عليها وعدّها حتى تفوق عدد أصابع يديّ على الأقل.

أبدأ في العدّ، أحوّل عيني يمنة ويسرةً، ولكن بلا جدوى. يتبدد الأمل على هذه الأرض، على هذا الطريق. فأقفز في لحظة وأترك هذا المكان الحزين، وأمضي. إلى أين؟ لا أدري. ربما إلى الفراغ السحيق، إلى أرضٍ جرداء قاحلة تخلو منها الحياة تحت قدميّ، علّني أجد بها حياة فوقي. ولِمَ؟ لأُسكِن بها تلك الأفكار والعبارات كي تعطيها شيئًا من المعنى، قليلًا من المعنى، وأتخلص أنا من هذا الزحام القاتل وهذه الأصوات الصاخبة في أعماقي.

أريد هدوءًا ولو لليلة واحدة تأخذ فيها النجوم أفكارًا ترهقني. أو تسرقها الشُهب وتحرقها معها، وتتركني أنا المشاهد المتفرج المعنيُّ بهذا كله والهارب الشارد على أرض وإلى سماءٍ ليستا له.

أسرق إحساسًا من أرض ليست بأرضي وأترك سماءً تسرقني كما وكيفما تشاء. أستلقي على الأرض، أعتقد أن بها بعضًا من ندى الفجر، لا يُهم، لا يُهم. أنظر للأعلى. أكاد لا أرى السماء من كثرة النجوم. أغمض عينيّ. أحس الأرض تبتلعني والسماء تستنزف قواي بدفع هذه الأفكار مني. ولكنه استنزاف قبل تنهيدة أخيرة كما لو كانت إعادة إحياء.

أتركني مغمضة العينين لوهلة، ثم أنسى. أنسى كل شيء. أنسى من أنا وإلى أين أمضي ومن أين أتيت. شعورٌ بفقدان الإدراك. أفقد القدرة على التعرّف على الأشياء من حولي تمامًا من هول تلك الحالة. أظل كما أنا في ما يشبه الاستمتاع بالتيه، أضلّ الطريق إلى عالمي الحقيقي وأشعر بشيءٍ من الطمأنينة في هذا الضلال.

أتجاهل كل شيء. ثم أغطُّ في سُبات عميق لا أدري متى أستفيق منه إلى حالة استرداد إدراكي مرة أخرى.

رقصة في قاع الخيال

تصدح الموسيقى من جسدها دون توقف، فأتشبّث بها. "من أنتِ؟" أقول. (تُذهِب موسيقاها عقلي دون إجابة)

تتوقف الموسيقى فجأة ويبدأ الحديث. لا أفهم الكلمات ولكني أحس بموسيقاها خلف كل مقطع، وكأنها لغة مألوفة ولكنى فقدت معجمها في مكان ما بداخلي، أو ربما قد سرقته هذه الفتاة، التي كادت تهوي بي من حافة العقلانية في لمح البصر.

أحاول أن أفهم ما يحدث من حولي، ولكنني أغرق في محيطات اللاإدراك، التي تسحبني كلّما رأيت وجوهًا جديدة في أماكن جديدة، وبلغة لا أعرفها. فأُفاجأ بي أتقوقع مرة أخرى إلى الداخل وأرفض التفكير في ما ومن حولي. تنظر الفتاة إليّ كأنها تراني للمرة الأولى، ترى وجهي هادئًا شديد الهدوء بعد أن أذهبتْ عقلي في ثوان معدودة.

لا أريد أن أتخيل للحظة أخرى أنها تعرفني، أنها تبادلت معي الحديث في تلك اللحظات التي تمايلتُ فيها وتمايل الجميع من حولنا كسرب الطيور، في سماء موسيقاها نسمات الربيع.

أريد أن أظل في قوقعتي، ألا يعكّر أحدٌ عليّ صفائي من الداخل، ألا

يصيبني أحدٌ بهشاشة فلا أستطيع العودة إلى عزلتي.

كنت أتمنى ألا يزعجني كل هذا. كنتُ أتمنى ألا تكوني في خيالاتي،

حتى أهرب منك في أي وقتٍ أريد.

أو حتى ألجأ إليكِ في أوقات وحشتي.

نصف واقع ونصف خيال

رُفِعت أقلامهم ولكن لم يجفّ حبر قلمي وعجز عن التزحزح عن مكانه. وقف متسمّرًا، عاجزًا عن الكتابة وغير قادر على ترك الورقة في نفس الوقت. صمَت الجميع إلا أنا، ظلت كلماتي تتردد في جو الغرفة، لا أستطيع إرغامها على السكوت ولا أستطيع منع نفسي من التفكير.

أهرب إلى مكانٍ آخر، أنفض الكلمات عني. أستنشق هواءً مليئًا بالصمت، فراغات معبأة باللاشيء. أتمنى في لحظة ما أن أكون ذلك الشخص الذي رأيته وأنا في طريقي إلى فكرة تترامى تفاصيلها المرهقة على أطراف ذاكرتي، أتمنى أن أكون ذلك الشخص الذي يسير وفي أذنيه نغمات من الموسيقى التي تبعث له أفكار مؤلفيها، فيرحل من عالمه الثقيل المرهق إلى عالمٍ لا هو في الخيال ولا هو واقعي، نصف واقع ونصف خيال.

أتمنى أن أكون وألا أكون، أن أصبح إنسانًا بلا قيمة في أفكاره وبلا معنى في كلماته. أريد أن أترك المعاني ولو في فكرة واحدة (والفكرة بلا معنى بالتأكيد لن تكون فكرة) وأتحدث بما يفيض به قلبي وعقلي من الفراغ السحيق، حتى أتنفس الصعداء وأبدأ مرة أخرى طريقًا جديدًا كما

لو كنت بُعِثتُ من جديد.

لأموت من جديد؟

أيبعث المرء إذن من الموت إلى الموت ويعيش للموت؟

إذن أعطِني فكرة..

رسالة إلى (م)

عزيزي مـ.

أكتب لك بكلمات مرتجفة خالية من السكينة والطمأنينـة. تقاذفتنـا الأيام حتى وصلت بنا إلى حافة الهاوية ثم تركتنـا معلقـين هنـاك، بـين المكان واللامكان. ونهضت هي لتعيد كرّتها في غيرنا منتظرة منّا اعتيـاد هذه البينيّة أو اللاكينونة.

اعتدتُ يا صديقي أن أعيش تحت أسقفٍ بلا رحمة، تهددنا بالانهيار بين الفينة والأخرى، وكأن لي بيتًا من ورق مقوّى أو من الدومينو التي تقع واحدة تلو الأخرى في لمح البصر. اعتدت أن أغطّ في سبات عميق ولكن بنفس هذه المآسي ووجدت نفس هذه الكلمات المرتجفـة أو شـبيهتها في حلـم مـن الأحـلام، إن لم تكـن في جميعهـا. ثـم يحـدث أن أسـتيقظ فـأرى الحلـم في الحقيقة فأفقد الإحساس بأنني كنت نائمًا في المقام الأول.

أريد أن أحكي لك عن الوطن، أو عن اللاوطن، عن مساحة من الأرض وُلـدتَ فيهـا وأمـضيت طفولتـك في شـوارعها وأحيائهـا ظانًّـا منـك أن الطمأنينة تعتريها وأن الأهل يحمونها وتحميهم، أن شوارعها تحتضنك بحنان الأم الـتي مـات أطفالهـا فتبنّـت جميـع أطفـال الـشارع. أريـد أن أخبرك عن سماء لم تنعم بالصفاء ولو لليلة واحدة منذ رأيت نورها، فقـد

ظلت دائمًا مليئة بالحزن والفراغ السحيق وخالية من النجوم والنيازك والشهب. وحيدة شريدة تبحث لنفسها عن مفرّ من هذه الأرض الشريدة، من هذا الوطن الجريح الذليل. تبحث عن مخرج ما.

الفرق بيننا يا صديقي بيتٌ من ورق وخيمة من قماش، تعددت المسميات والمعنى واحد، والشعور واحد، والأسى واحد.

يحسدنا من له وطن نفاه أو من ليس له وطن، ولكن الوطن بذاته منفى أحيانًا، ووجودك فيه هو أقصى درجات "اللاوطن" وأقصى حالات النفي، يقولون لك مواطن ولكنك لست إلا منفيًّا يُلبسونه قناع المواطن ويرغمونه على تصديق الكذبة التي اخترعوها، وأحيانًا تكون أنت من اخترعها وصدّقها كي ينسى، أو كي لا يفكر مرتين.

لا فرق بيننا يا صديقي، الأرض تنفينا جسديًا أو نفسيًا، فلا تأسَ ولا تترك الأمل يتبدد وينهار داخلك فتخور قواك في لمح البصر. اترك المسميات واستمع إلى كلماتٍ قد تشعرك في يومٍ ما أن انعدام الوطن أهون من نفيه لك بدون ذنب اقترفته غير أنك تنفست من هوائه واستلقيت على ترابه وستموت تحته.

لعل هذه الرسائل ومثلها من غيري تعطيك شيئًا من الصبر.

ألقاك في وطنٍ قد نصنعه معًا يومًا.

رسائل إليك..

دائرة مُفرَغة

إليكْ،

ما هو التعبير الأمثل لمن يخاف الذكريات؟ وما هو المصطلح المعبّر لمن تلاحقه الذكريات؟ لا تقل لي إنه ليس في اللغة العربية أجمع وعلى مرّ تاريخها من لم تصِبه الذكريات بشيء من الغصة في الحلق، أو بشيء من الوخز المفاجئ الذي لا يترك لك شيئًا من الرحمة لتتنفس قليلًا. لا تقل لي إن أحدًا من علماء المجمع اللغوي لم يجئ بلفظٍ يبعث لنا بشيئ من الطمأنينة ويعبّر لنا عمّا تبوح به أنفسنا الفقيرة. ولكن الذنب ليس ذنب اللغة، فهي بريئة من أحاسيسنا، وإنما الذنبُ ذنبنا، نحن الذين نخاف مما ولّى ولن يعود، ومما يحمله لنا الغير من الذكريات التي لم نكد ننساها لتطاردنا في هيئة أشخاص يذكّرونا بأشياء لم ننسها بعد.

ما هي الذاكرة؟ ولِمَ تتحايل ضدنا في أغلب الأوقات لتذكّرنا بأيام لن تعود، والأفضل لها ألّا تعود؟ وما هو الوقت؟ ذلك الشيء الذي لولاه لفقدنا الإحساس بمئات الوقائع ولتركنا كل شيء ينسحب إلى خيالاتنا. ماذا إذا توقفت عقارب الساعة عن الدوران وتركتنا في هدوء الغرفة من حولنا، تركتنا مع الحوائط الأربعة وبين أفكارنا، أليس هذا بسجنٍ كافٍ

لنا؟ أيجب على العقارب أن تدور محدثةً صوتًا يذكّرنا بأن العمر يمضي، وبأن حاضرنا ليس إلّا ماضيًا ينتظر التكوين؟ ولكن الذنب ليس ذنب الوقت بل ذنبنا، علينا التخلص من ساعات العالم أجمع، لكي نضيع في واقعنا ولا نبحث عن ماض أو نخاف مستقبلًا لا ندري كُنهه. علينا أن نضلّ لنعرف الطريق.

ما هي الكلمات؟ ومن أين جاءت بالسحر الذي ساعة يقتلنا وساعة يعيد إحياءنا؟ ما هو السر وراء هذه الحروف اللغوية التى تكوّن معان مختلفة مع كل إنسان يستخدمها؟ اللغة ما هي إلّا شيء من السحر، ولكنّه سحر يملكه جميع البشر، ومنهم من لديه القدرة على استخدامه كالسحر الذي نشاهده في المسارح وعلى التلفاز. اللغة عالم لا ينتهي، ولكل لغة سحر خاص بها، ولكل سحر سحَرته الخاصة. فكيف لي ألّا أنتهز جمال اللغة وأدبها لأكتب لك، لأعبّر لك عن أفكاري التي ما هي إلّا نتاج للّغة واللغة نتاج لها. كيف لي ألا أكتب لك وأنت من يصمت دون رسائل لي، لأنك تعلم أن اللغة وحدها أحيانًا لا تكفي للتعبير، ونحتاج إلى لغة أخرى هي لغة الجسد.

كيف وأنت تعلم كل شيء؟

ولك كُلّ ما فيّ،

نون.

رسالةٌ ليستْ على وَرَقْ

إليكْ،

أكتبُ لك بـدون أقـلام أو أوراق، أكتـبُ بكلتـا يـداي. وأكتـب بـدون انحناءة في ظهري، ولكن باسترخاء تام على شاشة لا تعجّ بها أية حياة. أكتب دون ألم في يديّ من القلم ودون أي حبر يلطّخها. أكتب بكـل مـا في هذا الزمان من رفاهية، ولـيس في الكتابـة مـن رفاهيـة، ولكـنّني أكتـب وأُطلق على نفسي كاتبة على هذه الشاشات الخالية من الحيـاة. والـبعض ويصدّق. وليس في يدي قلمٌ يدمي ويقف على الورقة أو يُلقى عليها مُرهقاً من كثرة ما في جُعبتي من صمت مليء باللاأمل. ولكـنني أكتـب علـى أي حال.

أرسم صورة لك على هذه الشاشة بخطٍ واحد لا يتغيّر، بعـد أن كنـت أرسمك في كلّ مرة رسمة جديدة عمّا قبلها وعمّا بعدها. تتغيّـر ألوانـك في رسائلي الجديدة، فقد تصبح قرمزيًا وقد تصبح أرجوانيًا، وأحيانًا كثيرة تصبح أسودًا. بينما على أوراقي أنت دائمًا رماديّ اللون. وكأنك بـين كـل شيء في الحياة، أو في عالمي أنـا بالتحديـد. ورسـائلي لـك لا تحيـد أبـدًا لتهرب إلى هامش الورقة، لأنـها ليست ورقـة بـالمعنى الـذي عرفتـه مـن قبل، ولكنّها تظلّ حبيسة في أُطرٍ خانقة تكـاد كلمـاتي تُقتـل فيهـا، بـل

تكاد تُنتزع منّي إلى السطر التالي، بدون أي رغبة مني ولا تخطيط. أكتب وأترك الكلمات تتأرجح بين السطر والآخر، لأنني أصبحتُ كالآلة، لا أحيد عن الطريق كما يحيد الإنسان.

في رسائلي إليك، لن تجد ما أمحوه ولا ما أشطُبه، وستراها تكاد تكون كاملة وتامة، وكأنها تزعم أنها إله. لن يوجد فيها أثر كلمة مسحتُها وتركَتْ بقايا من حرفها في الرسالة، ولن ترَ فيها أي شائبة. وكأنني لا أمسح ما أكتب، ولا أتراجع عن مئات الكلمات وأنا أكتب لك هذه الرسائل. وكأن كلماتي امتلأت بالثقة العمياء، وأنا لا أتلقى منك من الرسائل رسالة واحدة فقط. وكأنّ الكلمات تخرج مني على ما هي عليه، بدون إضافة ولا نقصان. بل وكأنني شخصٌ كامل.

أرجوك ألّا تُصدّق هذا، أرجوك ألا تظنّ ولو للحظة أن فيّ من الثقة ما يبدو لك في رسائلي. فأنا مليئة بالتشككات وبالكلمات غير المنطوقة والحروف غير المكتملة التائهة. أنا كمن تراهم في مقهى في صباح باكر تشرب القهوة وحيدةً وتُفضّل أحيانًا ألا يكون بصحبتها أحد على الإطلاق. أرجو ألا تظنّ أنه ليس في قلمي ارتجافات وسكتات وترددات غير متناهية. أنا مليئة بها، بل إنني هيَ ذاتها. أنا مليئة بكل هذا. وأرجو أيضًا ألا تظنّ أن يدي لا تؤلمني من الكتابة، بل إن الألم يتضاعف لأنني أكتبُ بكلتا يداي ليصل إليك الحديث مليئًا بثقة واهية. ولكن لا

تُصدّق كل هذا. بل لا تصدّقني حتى ترى ما بداخلي مما يخفى عليك في هذه الرسائل.

ولكنّي آمل ألا يكون لكلّ هذا أثر على ما أكتبه لك وعلى تلقّيك لرسائلي، لأن تعدد الوسائل واختلاف الرسائل لا يقلل من معنى كلماتي لك. فالكلمةُ منّي والصمت منك. وقد قبلتُ التعايش مع هذا كله لأجلك.

ولكَ كُلّ ما فيّ،

نون

كِتابُ المطَر

إليكَ،

في كل ليلة أُمسك فيها رسالة لأكتب لك، تتلعثم الكلمات في حلقي وتصاب يداي بشلل الكتابة، أو عجز الكتابة. المسميات لا تهمّ، المهم هو الشعور نفسه. لذا، فقد قررّت أن أكتب لك الليلة، وهي ليلة رأس سنة جديدة ليس لي فيها إلا أنت، رسالة كُتبت لشخص غيري ومن شخص غيري أيضًا.

هو إهداء بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنه إهداء قد يعجز معجمي عن كتابته حتى وإن أصبحت في نفس مستوى أحدٍ من العظماء.

من "كتاب المطر"

إلى عزيزتي أمل،

عندما تساقط علينا النّعم أو تنهال علينا المصائب، إمّا أننا نقول "أول الغيث قطرة" أو نقول "إن المصائب لا تأتي فُرادى". وأوّلهما أجمل تعبيرًا، لأن المطر يوحي بالخير، والخير يا بنتي من عند الله، والشر والإساءة من عِند أنفسنا.

النفسُ يا بنتي لوّامة، وأمّارة بالسوء، ومطمئنة، ودنيئة. وستنهال عليكِ بجميع أشكالها وألوانها أحيانًا في تسلسل مُرهق ومتتابع بلا

رحمة، حتى إنكِ لتخرجين من صراع داخلي منهكة، تلهثين وكأنكِ كنت في حرب ما، وكل هذا قد يحدث في دقائق معدودة ستتخلصين منها لتقذفيها في اليمّ وكأنها صراع أعوام كاملة.

أريدكِ يا بنتي أن تتخيّلي أنكِ كوكب وأن السحب التي تهرب من مكان إلى آخر ما هي إلا نفسكِ بدرجاتها القاتمة الداكنة وبصفاء لونها من أي شوائب. ثمّ تخيلي أن روحكِ هي الأرض الذابلة التي ترويها أمطار السحب الكثيفة، والتى تهطل على أرض إمّا أن تحييها من صحرائها، أو تهطل على أرض جرداء قاحلة لا جدوى من الأمطار فيها. وهكذا روحكِ يا بنتى، إمّا أن يزيدها المدحُ تواضعًا، أو يأخذها إلى حافة الغرور.

في هذا الكتاب ستتعلمين أنواع نفسكِ الإنسانية، وستدركين أن روحك ليست إلا أرضًا تسقيها أنتِ بما تريدين، ولكِ من المطر كل النصيب إذا عثرتِ على أرض تُخفي بذورًا وجذورًا في باطنها. ولكِ أيضًا أن تضلّي الطريق إلى تلك الأرض مادام هذا الضلال ما هو إلا طريق نهايته هى الرشد.

لكِ كلّ شيء من حياتكِ يا بنتي، إلا أن تتركي نفسكِ لضلال لا نهاية له. وأدعو الله أن يكون لكِ من اسمك كل النصيب.

ولك كُلّ ما فيّ،

نون

مغْزى الوِحْدة

إليكْ،

لازال الفراغ يملأ المكان، ولا زال الصمت يقتلني في هذه الغرفة التي تتخللها أشعة الشمس من كل مكان، شمسٌ عنيدة ولكنها وحيدة، مثلي، في مكان مليء بالبشر، ولكنه هادئ جدًا في الوقت ذاته.

أجلس هنا، على مكتب ذي مساند غير ثابتة، وأنظر إلى كوب القهوة أمامي في خوف حتى لا تسكبه الحركة على أشيائي، فحولي حاسوبي الخاص وكُتبي وقلمي وحقيبتي، وقد أصبح المكان هو المساحة المريحة التي لم أخرج عنها منذ أسبوعين وحتى اليوم، وآمل أن يكون اليوم هو آخر يوم من هذه الكآبة المحيطة بي من جميع الاتجاهات.

ولكنّي أتذكر أنني لم أكتب لك منذ يومين، وقد اشتقت للكتابة ليس إليك وحدك ولكن لنفسي، فإنني أُحدّث نفسي كما أُحدّثك، فلا تعتقد أنك المُخاطَب الوحيد هنا، فأنا أخاطب أيضًا ما في أعماقي. ولكنني بلا شك أكتب لأجلك هذه الكلمات كي لا أنقطع عنك، وكي لا تعتقد أن أفكاري خالية منك ومن رسائلك التي لا تصلني أبدًا بالشكل الذي أريد، ولكنّها تصلني دائمًا بشكلٍ آخر. أراك في كل شيء، وكأن الناس أصبحوا

كلهم نسخة منك، وأنت لست ككل البشر، بل إنك لست كأحدٍ من البشر، أنتَ أنتْ، تصل إليّ من مكان ما بداخلي ولكنني لا أصل إليك أبدًا، بيننا صداقات وعلاقات وكلمات كلها معنوية، ولكنها أفضل من كل ما هو ماديٌّ أمامي، فكيف لي أن أطمع في المزيد؟

الوحشة شيء قاتل ومذهل في نفس الوقت، فهي تعطيك زمنًا سرمديًا للتفكير في حياتك من المهد إلى اللحد كما يقولون، ولكنها قد تقودك إلى الشكّ في كل شيء، والعدول عن كل الأشياء والأحلام التى بداخلك، الوحدة قد تقتُل كل شيء أو قد تُحيي كل شيء في الوقت ذاته.

ولكن هناك مفارقة بين الوحدة والأفكار، فإذا كانت الأفكار تحيط بك في وحدتك فأنت في الواقع لست وحيدًا بالمعنى الدقيق للكلمة، وإذا تعاملنا مع الحياة بهذا المنطلق فإننا نادرًا ما نكون وحيدين فعليًا، هى أشياء مادية فقط، ولكنّ المعنويات في كل شيء، وهي تغلب الماديات.

ثُمّ إن شعور المرء بالموجودات حوله لا يزيل بالضرورة إحساس الوحدة الداخلي.

المهم أن ندرك المغزى أو الهدف من خلق حالة كالوحدة، فلولاها لما توصلنا لمعنى الوجود.

ولك كُلّ ما فيّ،

نون.

حتّى تأتي، أُحِبُّكْ

إليكْ،

منذ سبتمبر الماضي وأنا أكتب لك، ولا أدري ما إذا كنتُ سأتلقى منك ردًا يومًا ما، أم أن ما أكتبه هذا ما هو إلا تنفيس عن النفس لشخص قد لا يكون له وجود، على هذه الأرض الجرداء البائسة.

وفي هـذه الأشـهر المعـدودة، تعلّمـتُ أن الكتابـة لا تتطلـبُ وحيًـا أو إلهامًا ما، ينهـال علـى الكاتـب دون وعـى، وإذا بالكلمـات تتنـاثر علـى الورق وتكتب نفسها دون أقلام أو أفكار منتظمة، فالأفكار ستتـشكّل مـع انتهاء هذه النوبة أو الحالة الهستيرية التى نسمّيها وحـى الكاتـب، أو وحى خيال الكاتب.

دعك من كل هذا، فهو ليس إلا ترهات لا وجود لها في حياة الكاتـب الحق، ذلك الذي يقضى ليال غير منقطعة تتـزاحم الكلمـات في أحلامـه، وتذبل وتختفى إلى عوالم غير مرئية وخيالات لا تنتمى إلى أوراقـه. كلـه كذب.

خُدعتُ عندما ظننتُ أننى سأكتب إليك بـلا انقطـاع، لأن وجـودك في دفاتر تدوينى، ووجود رسائلى إليك، سيبعث إليّ بسحر ما يلـهمنى أن أكتب لك بشكل يومي، كلمات لن تـرَى لهـا مثيلًـا. ظننـتُ أن ذكـرك في

رسائلى وحده سيوحى إلىّ أن الكلمات موجودة، ولكن فقط علىّ أن أعثر عليها بداخلى.

كله كذب، كلها أوهام، خُدعنا وظننّا أن الحياة عبارة عن وحى ضائع يبحث عمّن يعثر عليه في كتاب ما.

الكتابة مثلها مثل العزف على آلة موسيقية ما، ستأتى المقطوعة الساحرة فقط بعد ساعات غير منقطعة من العزف والنغمات الشاذة والأوتار غير المنسجمة مع بعضها البعض. كذلك الكتابة، لن تأتى القصة أو الرواية أو الرسالة المبدعة إلا مع عشرات بل مئات الكلمات المبتذلة الركيكة والمكررة.

ولعلّ كتاباتى لك بالأخص لن أتلقّى منها ردًا إلا عندما أكتب ما يُنطِق معاجمك فتعتزم الرد برسالة تكون هى ما سيؤول إليه مصيري إما بالسعادة الأبدية أو بالبؤس السرمدي.

وسأظل أكتب بكل لغة أعرفها حتى أعرف لغتك التى تفهمنى بها أكثر، وسأظلّ أصارع مع الفشل حتى يتمكن أحدٌ منّا من الآخر. المهم أن أؤمن، وأظل أؤمن، أن العبرة بالخواتيم. والبدايات ما هى إلاّ تحدٍ.

وأحبّكَ حتى تأتى، بكل ما في الكلمة من ابتذال، وبكل ما فيها من خيال.

ولك *كُلّ ما فيّ*،

نون.

وصايا

إلى الكاتب الرائع واسيني الأعرج، كتبت ذات مرة رواية "سوناتا لأشباح القدس". ويا ليتك عزفتها كي أستطيع أن أعبّر عما ألهمتني إياه في هذه الوصايا.

وصية العجز

ولدي،

أَعلمُ أن الدنيا لم تعطِني حبًا بعد لأُفرغ فيه كينونتي وآتي بك إلى هذه الدنيا ولكنني أردت أن أكتب لك ما قد أعجز عن كتابته والبوح لك به عندما نلتقي للوهلة الأولى ونكبر سويًا ونحن لا نشعر.

اعْلَم يا ولدي أن حمول هذه الدنيا على كتفيك ستكون أحيانًا خفيفة الظل رشيقة تكاد لا تشعر بها، وأن الكلمات والعبارات والعواطف ستساعدك أحيانًا كثيرة حينما تكون في حاجة إليها.

اعلم أنها ستفي بوعدها كما أوفت بوعدها من قبل، ولكن اعلم أيضًا يا ولدي أن الوفاء بالوعد لا يستمر للأبدية، وأن سلسلة المشاق والمتاعب هنا لن تكون دائمًا على نفس النهج، بحيث تجد ما تريد البوح به في كلمات بسيطة أو عبارات خفيفة ذات معنى. ليس هذا ما يحدث مع الزمن وما يسلبه منّا ومع اختلاف الكلمات وعمقها من فينة إلى أخرى.

ستأتي عليك يا ولدي أيامٌ لن تفهم فيها عجزك عن النطق أو التعبير بشيء من العاطفة والحنوّ. ستجد الكلمات تخذلك والعبارات تهرب منك مخافة أن تضعها في مكانها الخاطئ، ستجد أن الخذلان تزداد حدّته يومًا بعد يومٍ من كلماتك مرة ومِن مَن هم حولك مرة أخرى.

أرجوك ألا تجزع ولا تفزع، فهي سُنّة النضوج.. لن يسعفك ما بداخلك كما كان من قبل.

أوصيك يا ولدي في هذه الأوقات بلمس مفاتيح بيانو والعزف عليه برفق في لحظات حزنك أو بغضب في لحظات فقدانك لعقلانيتك. أريدك أن تترك مفاتيحه تتفوّه لك بكل ما عجزت عن البوح به أو التعبير عنه، ستجد الكلمات تتناثر بين يديك وتتطاير بخفة ورشاقة أمام عينيك لتعطيك ما لم يعطه لك أحد. دع الآلة تنطق بما عجز البشر عن النطق به، وستجد فيها وفاءً لكل الوعود التي جزعت منها وآلمتك حتى الصمت الموحش.

أوصيك بألا تتركها بلا عودة. اترك الغبار والتراب ينهالان عليها إذا لم تحتجها ولكن عُد لها في وقتٍ ما. وعُد لها في وقت فرح قبل وقت حزن وعجز ، حتى لا تعذّبها بكلماتٍ حزينة فقط. بُح لها بكل ما تستطيع من فرح وحزن وألم وتحمس واشتياق وجنون وحب ولهفة. احكِ لها عنك وعنّي وعنّا معًا وعن الدنيا وعن الأحبة والذين فارقوك وعن كل ما يجول بخاطرك. لا تتردد.

فالتردد يا ولدي يأتي لتنهار معه كل نغمة رقيقة عزفتها يداك. اعزف يا ولدي بلا توقف وتذكر، ليس كل ما يبعث الطمأنينة يتنفس كالبشر.

تنفّس أنت كبيانو ودع البشر يتنفسون للعيش لا أكثر.

وصية الغرق

ولدي،

أريدك يا ولدي أن تغرق في هذه الدنيا بالمعنى الذي يحسدك عليه من هو على السطح لا تستطيع قدماه لمس القاع، ويعجز عن التقوقع للمس حافته بأي وجه من الوجوه. أريدك أن تغرق في أفكارك، في ألوانك، أن تغرق في الهواء المحيط بك. تنفس يا ولدي بأقصى ما تستطيع حتى وإن لم تعطِك المدينة الموحشة الهواء النقي الذي تستحقه. تنفس حتى تعجز رئتاك عن تحمل المزيد من الهواء، ثم تنهّد تنهيدة من لم تسعفه روحه بالبوح بأسرار نفسه وأسرار الدنيا داخله، أَخرِج أسرارك للدنيا لتمتزج مع أسرار الآخرين في الهواء المحيط بك، فتعطيك إحساسًا غريبًا من الأمنة والسكينة.

اغرق في أفكارك التي ستصيبك بالجنون إذا تركتها شريدة، اغرق ولا تسحبها معك مرة أخرى. اتركها حيث غرقتَ معها. فكرة تلو فكرة. واحدة وراء الأخرى. ولكن لا تُزهِق روحك بالإفراط في التفكير فتعجز عن التخلص منها، وتتوه في متاهات لا متناهية تخنقك وتسحقك فتموت عالقًا في فكرة غير مستحقة.

اغرق يا ولدي في ألوان الحياة بأطيافها المختلفة. اغرق في اليوم الواحد

في لونٍ واحد بجميع أطيافه، حتى تصبح في الصباح بلون بهجة وفي المساء بأقصى درجات اللون سوادًا وقتامة. حتى تصبح يا ولدي شقيق الجنون أو ما يُشتقّ من الجنون. عِش في الألوان وكأنها تُشكّل أيامك منذ أن تستيقظ في الصباح الباكر مع ندى الفجر حتى تغفو على سطح بيتك وأنت تشاهد النجوم والشُهُب. تنفّسها. اكتب بها أو ارسمها. اصْنَع ألوانًا جديدة لم يرها إنسان وبعثِر درجاتها في الهواء المحيط حتى يشعر بها من لا يرى الألوان، من أعمى البصر إلى أعمى الجمال. فأكفّاء الجمال كُثُر يا ولدي. هم لا يرون الدنيا كما تراها. التمس لهم العذر أيضًا لأنهم لم يصلوا إلى القاع الذي استطعت أنت الوصول إليه.

التمس لأكفّاء الحياة أيضًا عذرًا، فهم يعيشون بين جمال وجمال ولا يرون إلا القُبح الذي قد يعكس ما في روحهم ما عجزت المرايا عن عكسه. التمس للموتى داخل أفكارهم عذرًا مضاعفًا لأنهم يا ولدي ضعيفون من الداخل أكثر منك ومنّي ومن أي مخلوقٍ آخر.

التمس العذر لكل من هم حولك، ولكن إياك إياك يا ولدي أن يعجبك مكانهم وتلبث في قمة ترى فيها جميع من تلقى وتنسى أن تغرق في الأعماق. وتنسى الألوان المجنونة والأفكار المختلفة والكلمات الممتلئة.

حذارِ يا ولدي ألا تغرق.

وصية الهرب

ولدي،

قد تتعجب من كتابتي لهذي الوصايا، واحدة تلو الأخرى بأسلوب فيه من الإسهاب ما قد يملأك بالضجر والملل. ولكن الكلمات تُنسى والأفعال تُنسى وحتى الوعود تُنسى، وتقتلعها الحياة من جذورها.

أريد منك يا ولدي أن تهرب كلما عجزت روحك عن التعايش مع كآبة الدنيا، اهرب من كل شيء في شيء واحد. اهرب من الحزن والبغض وخيبة الأمل والخذلان. اهرب من الأفكار المخيفة والأحلام المؤرقة. اهرب من نفسك.

اهرب إلى كاتبك المفضل، إلى كتابك المفضل، إلى كلماتٍ لم تستطع كتابتها فكتبها لك شخصٌ آخر في مكانٍ آخر في هذا العالم. شخص قد لا تجمعك به الأقدار وقد لا تعرفه معرفة شخصية طالما حييت ولكن تربطك به صداقة افتراضية غريبة داخل كلماته وعباراته التي عرف بها أن يتقرب إليك بشكلٍ لم يتمكن منه أحد.

اقرأ الكلمات بعناية، واقرأ الصفحات بتأنٍ شديد كما لو كنت تتحدث مع نفسك لحلّ مشكلة ما. اقرأ يا ولدي حتى تنسى كما ينسى السكير أحزانه بالخمر. قرّب الكتاب من وجهك واسمح لنفسك

باستنشاق عبق صفحاته التي لن يـشعر بنـشوة عبيرهـا إلا مـن يغـرق في الكلمات ويستمتع بهذا الإحساس بـالابتلاع الـسحيق. اسمـح للكتـب أن تبتلعك لتدخل في كلماتها وتتقمص الشخصيات داخلها وتنسى مـن أنـت أو تتناسى فتنسى كينونتك وأي وجهة أنت موليها.

عش شخصيتك المفضلة من رواية قريبة إلى قلبك، عـشها في واقعـك، خذ شيئًا من الخيال وافرضه على الواقع حتى يهيأ للعالم من حولك أنها شخصية حقيقية مدفونة في مكانٍ ما وقد قررتَ أنت إعـادة إحيائهـا مـن تلقاء نفسك. اخدع الناس الخداع الجميل الذي ينسيهم الواقع أو يشتّتهم بين واقعٍ كئيب وخيال ساحر فيختاروا الخيال علّه يصبح واقعًا ينسيهم حزنًا ما، أو يأخذ بأيديهم هربًا من عاصفة ما.

ثم انثر كلمات الكتاب في الاتجاهات الأربعة لترى كلماتٍ وصفحات في شرقك مع طلوع الشمس وترى فصلًا آخر من الرواية مـع غروبهـا، ثـم وأنت تسير في الطرقات التي لا تعرفها لتخفف من وطئة الغربة وتكـون لك صاحبًا لا يملّ من أحاديثك اليومية.

اهرب يا ولدي مـن كلماتـك إلى كلمـات غـيرك، فهـي أفضل وسـيلة للتخفيف عن همـوم الـدنيا، ولكـن القلـة، مـع الأسـف، يـدركون هـذا. فدعهم يستهزئون. دعهم يـضحكون ممـا تعـيش فيـه مـن خيـالات. ثـم اتركهم في حيرة من واقع كئيب لا هروب منـه .فستـضحك ويبكـون. ثـم تقرأ مجددًا.

وصية الحزن

ولدي،

يومًا ما، وبدون سابق إنذار، ستحزن يا ولدي. ستحزن وستعجز عن الحديث عن سبب حزنك، وستعجز عن معرفة سبب حزنك أحيانًا كثيرة. سيظن الناس منك غرورًا أو غطرسة أو تكبُّر. دعهم يا ولدي، فالناس يتحدثون، وسيتحدثون إن قلت أم لم تتفوه بكلمة.

ستحزن لأيام، ربما لساعات فقط، وربما يمتدّ الحزن لليالٍ لا تنتهي، فتنسى أنك حزين، أو تتناسى فتنسى ثم تغضب وتتراكم داخلك الكلمات، فتمتلئ بالجهل بأن السبب الأول لكل هذا، يا ولدي، هو شدة حزنك.

ستتجاهله أحيانًا، ثم سيصحبك أحيانًا أخرى مطالبًا إياك بالجلوس معه والحديث عن طريقة تُحرركما معًا، أو تُطلقكما إلى مكانٍ آخر بعيد، كلٌ على حِده.

اجلس يا ولدي وكأنك تخاطب شخصًا يحمل حنقًا لا متناهيًا تجاهك. اجلس وتحدث وتشاجر مع حزنك. ارهِقه ودعهُ يُرهقك. استنزفه بل وأطلق له العنان لاستنزافك وابتلاعك. دعه يكسر كل فكرة من أفكارك بل ويمزقها قطعًا صغيرة فيضطرك إلى تجميع أفكارك

المبعثرة، على الأرض التي ستمتلئ بالحزن، وإصلاحها مرة أخرى كما لو كانت قطعًا لصورة ما أو أحجية لن تبدو كما هي مع قطعة واحدة فقط في المكان الخاطئ.

إياك أن تستسلم للمعركة أو تدفن حزنك في مكانٍ ما مع شخصٍ ما حتى وإن كان هذا الشخص صندوقًا تلقمه أسرارك وتنسى ما تحكيه له من شدة ثقتك.

احزن يا ولدي. احزن بأشد ما استطعت من الصخب ولا تترك هدوءًا داخلك يدفعك للجنون قبل أن تستنزف كل ما بداخلك وتمتلئ بيقينٍ فيما بعد بعودتك إلى نفسك، عُد إلى هدوئك المعبأ بالطمأنينة. اسكن داخلك في هدوء شديد.

ثم ربِّت على كتفيك وأنت مغمض العينين. وابتسم ابتسامة أخيرة.

ثم افرح "بأقصى ما استطعت من الهدوء، لأن موتًا طائشًا ضلّ الطريق إليكْ."[1]

[1] محمود درويش

وصية الفقد

(الوصية الأخيرة)

ولدي الحبيب،

ليست هذه وصية الفقد لأنها الأخيرة، ولكن لأن البكاء هو قمة كل الأحزان وبعدها تستقرّ جميعها في مكانٍ ما في قلبك، بهدوء لم تـرَهُ قبل هذا الانهيار. لن تنسى ولكنك ستتناسى لأن الحياة تمضي وستمضي ولن تنتظرك حتى تُنهي حدادك على من فقدت وتفقد.

الفقد ليس فقد أشخاص فقط، فهناك من يفقد شيئًا بداخله، هناك من يفقد روحه ولا يعثر عليها مجددًا. هناك من يفقد فنًا انزلق من أصابعه دون أن يشعر، وتحولت حياته إلى مجرد دقات عقارب ساعة تمضي ليحيا دون ألوان ولا موسيقى، كفيلم داخل كاميرا قديمة مشوشة يكاد يُسمع فيها صوت الممثلون.

الفقد رغم آلامه يحيي فينا شيئًا ما. تتضارب الكلمات وتتناقض ولكن الزمن يثبت أن التناقض هو جزءٌ من الحياة، وجزءٌ منّا.

* * *

"ثم، من قال إن عدم البكاء رجولة؟"

ستسمع يا ولدي من يسخر من رجالٍ يبكون. ستسمع من يستهزئ برجلٍ بكى لفقده شيئًا كان عزيزًا عليه، لشعوره بلحظة وهن وضعف شديدين لم يتحمّل فيها جموده المعتاد، وإذا بالدموع تتساقط على خدّيه، وإذا به يجهش بالبكاء كالطفل الذي لم يعثر على أمه وسط طريق مُعبّد بالبشر. وإذا به يتوارى عن الأنظار مخافة أن يتّهمه الآخرون بالضعف وقلة الحيلة والاستسلام للدموع كطفل أو كامرأة. سيتساقط التماسك والقوة والشجاعة ويستقر كلُ شيء عند شفتيه ليبتلعهم وينسى أنه احتمل هذا كله طيلة حياته وجاءت لحظة انهيار الجبل الجليدي، وقتئذٍ فقط لن يوقفهُ أحد رغم كل الاستهزاءات والضحكات المكتومة.

دعهم يستهزئون يا ولدي. دعهم يسخرون من رجلٍ اختار أن يكسر مقولة كاذبة تدّعي أن استسلام الرجل لدموع الفقد يفقده رجولته.

ابكِ على صدر من تُحب. ابكِ حتى تخور قواك وينزلق كل ما أحسست به في يومٍ من الأيام، ليستقر على جسد من تحب. ابكِ حتى تعجز عن الحديث وعن النوم من كثرة الآلام ومن فرط الإرهاق في عينيك. اجزع ولا تخف من اتهامات وادّعاءات لن تفيدك فيمن فقدت وفيما فقدت. ابكِ حتى تجفّ عيناك وتبتلع شفتاك كل شعورٍ شعرت به مذ نفخ ربي وربك فيك من روحه.

لا بأس إن لم تمتلك نفسك بعدما ضاقت عليك الأرض بما رحبت. لا

بأس في شيءٍ من السقوط، أو في جبلٍ من الحزن حتـى تعـود مـن جديـد.

حتى تعود بعد موتٍ من جديد.

فسأفقدك وتفقدني، ولكن الملتقى ليس ببعيد.

ابكِ يا ولدي.

أشباه قصصٍ قصيرةٍ جدًا

شخصٌ آخر

يأتي دائمًا يومٌ يسقط عن الحسبان ويُنسى، ولكنه يأتي. حينما تستيقظ لترى الوقت على هاتفك المحمول، المُلقى تحت وسادتك أو على المكتب بجانبك، ترى الوقت قد تأخر وأنك سهوت عن موعد استيقاظك بساعة أو ساعتين على الأقل. يحدث أنك تفزع رغم أنه يوم عطلة نهاية الأسبوع، ولكن.. ولكن دائمًا ما يكون هناك شيءٌ ابتُلع في نهر النسيان.

وكان هذا ما حدث لي ذات صباح.

استيقظت في هدوء. نظرت إلى هاتفي ورأيت الساعة قد قاربت الحادية عشرة. قفزت كما كنت أرى في الأفلام البطل وهو يتأخر عن موعدٍ ما فيقفز ويرمي أغطيته بشكلٍ عشوائي سريع. ولكن الفرق أنه لم يكن في خلفية هذه اللحظة موسيقى ما أو أغنية تتناسب مع هذا الموقف المتوتر. والفرق أيضًا أنني لم أتأخر ولم يفُتني أي موعد.

فاتني شيءٌ ما، إحساسٌ ما عجزت طيلة عمري عن مواجهة نفسي به، عن التحدث عنه مع كائنٍ من كان. فقد كانت عيناي تتحول إلى نقطتين خاليتين من كل شيء في جسدي، في وجهي، وجهي الخالي أيضًا من أية تعبيرات ذات معنى أو لا معنى.

تذكرت كلمة أمي عندما قالت لي في مرة زلّ لساني فيها وقلت إنني

بكيتُ في موقفٍ ما "ظننت أنكِ لا تبكين أبدًا". أتذكر حينها أنني نظرت إليها. للحظة أردت أن أبكي أيضًا ولكنني تذكرت عنادي أمام نفسي بعدم البكاء أمام أحد.

"أمي، رفضي البكاء أمام أحد لا ينفي عنّي فعل البكاء مثل أي إنسان". صمتت وانتهى الحديث.

عرفتُ لحظتها يقين أمي بمدى قوّتي ولكني عجزت عن البوح لها عن هشاشتي من الداخل.

ثم أدركتُ أن هذا ما أيقظني الآن. كان عليّ أن أودّعك صباح اليوم ولكنني عجزت. لم أُرِد هذا أم عجزت عنه؟ ربما الاثنان. أعلم أن هذه اللحظات تكون مليئة بصمتٍ يقتل، صمتٍ يسجنك داخله وتتآكل فيه نفسك شيئًا فشيئًا حتى تركض، حتى تدير له ظهرك وتهرب من عينين سترى فيك ما لا يراه كثيرون. سترى فيك ما كنت أنت أيضًا تتفاداه طيلة هذه السنين. صمتٌ موحش وكلمات في عينيك تتدافع لتخرج أو تختبئ لتُنسى، وتتضارب في داخلك الأحاسيس فتبدأ في الانهيار، فتُفضّل الهروب.

تُفضّل الهروب على أن يعرف هذا الإنسان قيمته الحقيقة داخلك وهشاشتك وعجزك عن البوح بها، ليس لأنك لا تحبّه ولكن لأنك من فرط حبك له ستُعجِز الكلمات وحتى الصمت، وربما يعلمه فقط بعد هذا

الفراق، في اللحظة الأخيرة التي سيرى فيها وجهك فيدرك مدى حبك له بدون مغالاة ولا مبالغة.

* * *

هذا الصباح، صباحٌ كان عليّ أن أقف فيه أمامك وينظر كلانا في عينيّ الآخر بدون إشاحة وجهه، بدون تزعزُع، بشجاعة لا مثيل لها في أوقات الحاجة. هذه النظرة التي قد تدوم دقيقة ولكنها في الواقع سنين، ولكنّها عُمر- ولكنها دهرٌ كامل سيلاحقني ما حييت. ستلاحقُني فكرة أنني في يومٍ من الأيام تركتُ كل شيء شعرت به مدى حياتي يتراءى في عينيّ شخصٍ لن أراه مجددًا، شخصٍ تركت أفكاري وكل ما شعرت به يومًا ما يتجرد أمامه ويظهر جليًا للعين المجردة.

ولهذا السبب بالتحديد اخترت أن أترك النوم يبتلعني، كي أنسى ما بداخلي، كي أظلّ مغمضة العينين وتصبح جفوني هي الغطاء الذي يمنع أي إحساس بداخلي من الظهور جليًا أمام من أحب، أمام من أخشى أن يدرك أن وراء هاتين العينين أكثر من مجرد لون فاتح يهوى النظر إليهما.

من سيعلم يومًا ما أنني لستُ أنا.

بداية الموت

فلنبدأ القصة من النهاية. من الوراء.

لنبدأ من الموت إذًا.

ذلك الشيء الغامض الذي نحاول اختراع جميع آلات الزمن من أجله، من أجل اكتشاف لغزه وحلّ طلاسمه. ونتعامل معه فقط كلغزٍ آخر من ألغاز الحياة التي يجب علينا اكتشافها، لا كشيء مبهم لن يُكتب لنا معرفته إلا إذا أخذَنا إليه بوعدٍ نقطعه بعدم العودة، شئنا أم أبيْنا.

لنبدأ القصة من الداخل. من تلك الآلام الحادة التي تتخلل الجسد المهترئ الهزيل الذي لا يقوى على قتالها ومقاومتها. يستسلم لها بملء إرادته وبدون إصرار. بسلام الأرض التي تخلو من الحياة.

ذلك الجسد الذي اشتعل فيه الرأس شيبًا وهو يمضي ليبحث عن وجوه باتت في عداد النسيان. عن وجوه ملأت قلبه بالحياة في أحلك لحظات الموت. عن وجوهٍ كانت بها من كلمات عجزت البشرية عن تجميعها في قواميس لاستخدامها لمن هم في أمسّ الحاجة إليها مثله، لهؤلاء الذين سيحتاجونها ولن يشعر بهم أحد.

ثم لنذهبْ بالذاكرة إلى أبعد من ذلك بقليل. لنذهب إلى حيث تتّضح

الرؤية قليلاً ويمكن للشفاه أن تتحرك لتقول كلمات معدودة كـ"كم هي قصيرة أعمارنا، وكم هو قاسٍ هذا الموت الذي دائمًا ما نظنّه بعيدًا خطوتين عنّا لنتظاهر بأننا قادرون على الاستعداد له، ولا يزال لدينا متّسع من الوقت لتصحيح أخطائنا."

لنذهب إلى حيث لا يزال لدينا متّسع من الوقت بينما نحن على غير وعيٍ به، إلى حيث تأتينا الفرصة وراء الأخرى ونتركها تكاسلاً أو تعمّدًا بينما تتردد "ليس الآن" على لساننا بشكلٍ اعتدناه حتى أصبحنا نلفظه تلقائيًا وبلا وعي منّا. فننسى فكرة الموت وننسى أن هدف الحياة ليس الحياة ولكن ما يتجاوزها.

ثم لننتقل إلى نقطة التحوّل في حياتنا. تلك النقطة التي تستقر عند لقاء الحبيب أو عند العثور على حلم يتكوّن في الواقع فيفضي علينا بسعادة لم نعهدها من قبل. فتتحول ألوان الحياة إلى درجات لم تكن موجودة من قبل أو لم تلحظها العين الحزينة والروح المعتمة. ويخيّل لنا أن شمس الصباح التي تخترق زجاج نوافذنا قد انقسمت وافترقت إلى شموس صغيرة تضيء جميع الأماكن المعتمة على هذه الأرض.

لنعُدْ بالزمن إلى الوراء أكثر. إلى أيام الشباب والرعونة. إلى حيث تكبر أمامنا الأحلام التي لا زالت صعبة المنال، وتتهالك الأفكار البسيطة العادية وتُستبدل بأفكار مجنونة طائشة ولكنها مفعمة بالحياة. أفكار

تصنع من صاحبها مخبولًا يريد أن يحتلّ العالم ليسيطر عليه بمعتقداتٍ يملؤها الفنّ، ذلك الفن الذي يصل بصاحبه إلى حافة الجنون.

وبعدُ فلنرتحل إلى عالمٍ مليء بألوان الطفولة. بكلمات ليس لها معنى ولكنها تحمل صدقًا ينساه العالم مع تقدّم العمر، ويتناساه الشيوخ إذ هرِموا وماتت لديهم معانٍ كثيرة لم تعُد تُشكّل الحياة. لننزلق من هذا الواقع المؤلم ونعود بالذاكرة إلى حيث تُسعفنا الذاكرة. إلى حيث نستمع إلى عبارات عفوية وبكاء أقصى أسبابه إضاعة لعبة الطفولة المفضلة.

لننسحِب من هذا العالم بهدوء الرضيع على صدر أمه، أو بهدوء الجنين في بطنها. لننسحب دون أن يشعر بنا أحد ودون أن تنهال الدموع على قبورنا. لنمضِ في سلام قبل أن نزعج الأحياء الذين يصارعون حتى لا يرحلوا يومًا معنا وهم يتنفسون نفس الهواء الذي تنفسناه ويمشون في الشوارع ذاتها التي مضينا فيها.

لننسحب كالأطفال على فراش الموتى. لننسلّ إلى ذلك العالم الآخر أطفالًا في أجساد شيوخ.

ولكن لنترك قليلًا من الذاكرة لهذا العالم الكئيب.

لنترك قصة تنتهي في مستهلّها.

طمْسُ الحقيقة

أحببت ذلك الوقت من اليوم، من الصباح. ساعة موت يومٍ ومولد يـومٍ آخر. يـومٌ جديـد لم تتّـضح معالِمُـهُ بعـد. اعتـدتُ دائمًـا أن أرقُـب تلـك البداية، كيف ينزوي ظلامٌ حالك ويبهت لونُ الـسماء ثـم يـصير شـاحبًا حتى يتلاشى بالكامل، فيظهر بين ذلـك الـشحوب وبـزوغ الـشمس لـونٌ ثالث. تشعر أنك في عالمٍ موازٍ للحظة، ثم تعود إلى الواقع.

تودّ أن تظل هناك حتى وقتٍ غير معلوم، كمـا لـو كنـتَ بـين المـوت والحياة، لأنه التوقيت الوحيد الذي تُصنع فيه القرارات المصيرية الـتي تُغيّر مجرى كونك وكينونتك.

جلست هناك، على تلك الصخرة حيث يمكنني رؤية أشـعة الـشمس لحظة بزوغها وحيـث أسـتطيع أن أسـحب نفـسي مـن أي عـالمٍ أنـا فيـه وأذهب إلى عالمٍ آخر بملء إرادتي. عالمٍ انتظرت لحظة إعادة إحيائي فيه منذ زمن.

وبدأت أكتب..

كتبتُك في أول الصفحة عُنوانًا. ثم توقّفت.

مسحتُ ما كتبته. ترددت لحظة ثم مزّقت الورقة ووضعتها بجانبي.

بدأتُ من جديد.

كتبتُك لا اسمًا ولكن حرفًا بخطٍ عشوائي في منتصف أعلى الصفحة.

عين.

ثم من أول السطر،

"هذه ليست قصة داخل قصة، فكّر بها كما شئت، المهم أن تترك للواقع شيئًا ما، فلكل قصة مساحة في الواقع كمساحتها في الخيال.

اخترت أن أضعك في كلماتٍ لأن الذاكرة قد لا تسعف مع الوقت، ولأن العُمر قد يُنسي والقلبُ قد ينسى ولكنّ شيئًا ما لا ينكسر. ذلك الشعور بأن الراحلين موجودون في مكانٍ ما على هذه الأرض، في هذه المدينة أو في مدنٍ أخرى لا تعلم لها اسمًا ولا تدرك لها مكانًا على الخارطة.

أردتُ أن أكتُبك حتى تمكث قليلاً في مكانٍ ما، لأنك دائم الترحال حتى وأنت هُنا.

كتبتُك بألوانٍ كثيرة. وبأشعارٍ ليس لها عدد. كتبتُك من أول القصة، قصّتنا. وعرفتُ أن من يقرأها سيظنّ أنها قصة حبٍ لم تتكرر من قبل. ثم مزّقتُ كل شيء وبدأتُ من جديد، لعلمي أن الناس لا يدركون من الحب إلا ما بين رجلٍ وامرأة. نسوا أن الحُب لا يُحدّد بإطار كهذا. نسوا فمزّقتُ أوراقي لأذكرهم.

ينسى الناس فيذكرهم من ينسون أيضًا، من يكتبون لكي لا تخدعهم الذاكرة. مثلي.

كتبتُك كما لو كنتَ ذلك الليل الحالك، ذلك الظلام الذي يجب أن يظهر بعد تلاشي أشعة الشمس، وظهور ليلة قمرية بها القليل من السُحب التي تترنّح بجانب ضوء القمر. ثُم رأيتُك في كلماتي يزداد اللون فيك قتامة ويزداد الألم حِدّة، فتوقّفتْ.

لم أجرؤ على الاستمرار وأنت تزداد حُزنًا في قصتي.

ولكنني آمنتُ أن للطريق نهاية. فعُدت إلى حبري الأسود لأُكمِل ما بدأته.

أتردد كثيرًا ثم أعود. أكتُبك بلونٍ آخر لعلّ الليل يتحوّل إلى نهار، أو إلى شفقٍ برتقالي اللون مائلٍ إلى الحياة. أغيّر القلم على أملٍ لا جدوى منه أن يتغيّر لونُك مع كتابتي. إلا أنك تظلّ كما أنت. تظلّ كما عرفتك وجهًا لوجه. لك شخصية حادّة صارمة لا يغيّرها لا لون قلم ولا قصّة خيالية ذات أبعاد تلاشت في الواقع.

فاستسلمت لك في قصّتي. تركتُ كلّ شيء في واقعي واختبأتُ بين كلماتي لِأَصِل إليك كما أنت. ولأتخلص من هذا العالم الواقعي وأمكث في قصة قد لا تنتهي أبدًا. لا لأنني أريد العيش للأبد، ولكن لأنني أريد الموت في قصة. ميتة غير عادية، غير واقعية.

تركت حبري وقلمي وغرقت داخل أوراقي. تركت كلّ شيء لتحرّكه الرياح. وتبدأ قصتنا من جديد من حيث لا أدري.

لتكتبها أنت بألوانك، وأنسى أنا الألوان التي عرفتُها".

إلى غسان كنفاني،

لأن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية. وكُنتَ أنت القضية.

فوهة المدفع

كان رأسي داخل فوهة المدفع.

داخلها بالكامل. أردتُ أن أرى الظلام الحالك في وضح النهار. كانت مجرّد دعابة، مجرد لعبة ألعبها مع نفسي كنوعٍ من التغيير والتحدّي ليس إلا. لا أدري لمَ اخترت فوهة مدفعٍ بالتحديد. ولكنني أحسست أن ما بداخلها من ظلام يعبّر عن الظلام الذي تجلبه للبشر.

كانت الألوان منعدمة تمامًا. لا يوجد حتى ذلك الرمادي المائل إلى الأسود. كله لون واحد، لا يجدي فتح عينيك أو إغلاقها، لأن الإحساس واحد.

أردتُ أن أدخل بجسدي أكثر، ولكنني اكتفيت بشدة كحولة اللون في عيني فمكثت فترة ويداي تقبض على الفوهة من الخارج.

رأيتُ كل شيء. رأيتُ وطنًا يتمزّق بالداخل..رأيت حروف كلمة الوطن تنفصل وتتحول إلى فُتاتٍ يطير في الهواء كما لو كان رمادًا لحرائق الوطن كله. لم أكن قد تجاوزتُ العاشرة من عمري ولكنني كنت أعلم ما

هو الوطن. كنتُ أعلم ما هو قبل أن أرى هذا كله وقبل أن أرى من نحبهم الواحد تلو الآخر يموتون أو يتحولون إلى خونة غرباء.

رأيتُ كل شيء ولكنني توقّفت مذعورة في المنتصف حتى كدتُ أن أؤذي رأسي عندما ارتطم بسقف المدفع. خوفٌ من هذا الظلام الذي لا يكشف إلا حزنًا لم أعهده من قبل. كيف للونٍ واحدٍ أن يكشف لي عن كل هذه الأحداث. لونٌ واحد لم أُعِرهُ اهتمامًا بين الألوان الأخرى.

الأسود.

ثم سمعتُ بكاءً لسيّدة يبدو أنها فقدت زوجها، ثم لطفلٍ تائه بين دخان الحرائق وطلقات المدافع. سمعتُ صراخًا وعويلًا كعويل الذئاب ولكنه كان، من فرط الخوفِ، كخوف الحمَل. سمعتُ أصواتًا لم أميّزها وأحسستُ حزنًا لم أحسه من قبل. أردت أن أخرج من هذه البؤرة الميتة في حزنها ولكنني لم أستطع. لسببٍ ما أردتُ أن أرى المزيد. لسببٍ ما اعتقدتُ أن رؤيتي للمزيد ستعلّمني معنى كلمة "وطن" لأُعيد إحياءه من جديد. ورغم هذا عرفتُ أنه من السذاجة أن أضمد ملايين الجراح وأنا متقوقعة برأسي في الداخل.

عرفتُ أن "الوطن" الذي عشتُ فيه لم يكُن إلا حروف الكلمة مبعثرة بأشلائها بين بُكاءِ طفل ونحيب رجل وحُزن امرأة. عرفتُ أنني لم أكُن في وطن ولكنني كنتُ في أشلائه. ما يشبه الوطن ولكنه الجزء الدامي فيه

الذي لا يُداوى في أعوام ولكن في عقود. عرفتُ أنني لست أدري حتى ما هو الوطن لأُداويه. وكَمن لم يعرف هويّته، فقدتُ أنا هويّتي.

حاولتُ رؤية المزيد، ولكن الأحداث كانت قد بدأت تتكرر. وصارت الصرخات والنداءات هي هي نفسها ولكن بأصواتٍ مختلفة. نبرات الصوت أيضًا أحيانًا تكون قوية مسموعة جدًا وأحيانًا كثيرة تكون مُنهكة مستنزَفة دون أن ترى وجوهًا حقيقيةً لأشخاص.

رأيتُ الكثير في اللون الأسود، كلّه كئيب. كلّه حزنٌ يتجسّد أمامك ليس كالفرح المتجسّد، بل أقوى بكثير. كان، اللون، كالمحيط، لا يمكن أن تثق به، لأنه في لحظةٍ ما قد يُعجبك جماله فتبلل قدميك ثم تبتلعك الأمواج فجأة، دون أن تدري. الحُب يقتل.

والوطن أيضًا يقتُل.

* * *

بدأتُ في التراجع خطوة خطوة. تركَتْ يداي الفوهة من الخارج وبدأ رأسي يظهر للواقع مرة أخرى. وفجأة أصابني دوّار عنيف، وكأن الأفكار والمشاهد التي رأيتها في الداخل قد أصابها نوبة حُمّويّة عندما رأت أن العالم كما هو وأن الحياة تمضي وينسى الأحياءُ أمواتهم أو يتناسونهم بحكم العادة.

وقفت هُنيهة حتى تعتاد عيناي الضوء مرة أخرى، ضوءٌ يعطيك

الحياة ولكن، لتتنسى الأموات.

ثم صار كلّ شيء تافهًا ليس له معنى. أردتُ أن أعود لجيراني الذين كانوا لا يزالون يلعبون في حارتنا. رأيتهم من على بُعدٍ دون أن أُبدي أي حماس للمشاركة كما كنت قبل اليوم.

رأيت كلّ شيء كما لم أرهُ من قبل. كما لو كنتُ ولدتُ توًا. أردتُ أن أبكي علّني أعود إلى بطن أمي كالرضيع. أردتُ أن أنسى ما رأيت ولكن التفكير جعلني أتشبّثُ به أكثر فأكثر وأريد أن أنسى ما نحن فيه.

عرفتُ أنني لا أفقه شيئًا وأن الأطفال مثلي ليس عليهم سوى اللعب في الحارات والأزقّة كي لا ينتبهوا لذلك العالم الآخر. عالم الكبار الذين يعرفون كل شيء. يعرفون أن الوطن ليس لُعبة مع جيران الحارة وأنه ليس آيس كريم تشتريه مع أصدقائك عند العودة من المدرسة. عرفتُ أنهم عرفوا أن الوطن ليس الذكريات وليالي السمر والقهوة الصباحية في الشرفات.

عرفت أنهم عرفوا أن الوطن ليس الاحتواء.

عرفتُ وتمنّيتُ أنني لم أعرف ثم عدلتُ عن هذه الأمنية الطفولية.

ومررتُ بجانب لعبة كان يلعبها أطفال الحارة. نادى عليّ الجميع ولكنني لم ألتفت ولم أبدِ رد فعل كما لو كنت لم أسمع.

"استمتعوا بوطنكم، فهذا ليس وطني"–قلتها سرًا ومضيت إلى غرفتي صافعة الباب خلفي.

الفهرس

هذا الصباح، صباحٌ كان عليّ أن أقف فيه أمامك، وينظر كلانا في عينيّ الآخر بدون إشاحة وجهه، بدون تزعزُع، بشجاعة لا مثيل لها في أوقات الحاجة. هذه النظرة التي قد تدوم دقيقة ولكنها في الواقع سنين، ولكنّها عُمرٌ ودهرٌ كامل سيلاحقني ما حييت. ستلاحقُني فكرة أنني في يوم من الأيام تركتُ كل شيء شعرت به مُدى حياتي يتراءى في عينيّ شخص لن أراه مجددًا، شخص تركت أفكاري وكل ما شعرت به يومًا ما يتجرد أمامه ويظهر جليًا للعين المجردة.

ولهذا السبب بالتحديد اخترت أن أترُك النوم يبتلعُني، كي أنسى ما بداخلي، كي أظلّ مغمضة العينين، وتصبح جفوني هي الغطاء الذي يمنع أي إحساس بداخلي من الظهور جليًا أمام من أحب، أمام من أخشى أن يدرك أن وراء هاتين العينين أكثر من مجرد لون فاتح يهوى النظر إليهما.

من سيعلم يومًا أنني لستُ أنا.



تصميم الغلاف: محمد محمود - صورة الغلاف: عبد الملك سعيد